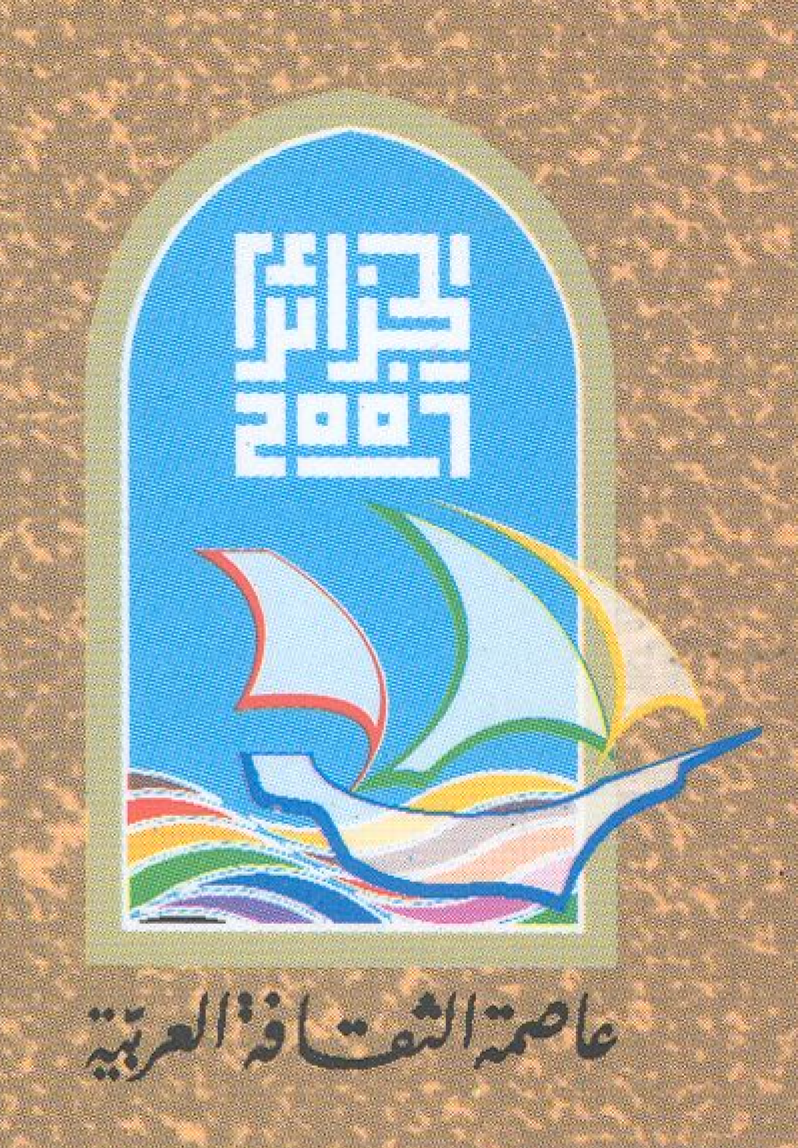
أصوات مناهضة للاستدمار

جاك فرجيس

محاكمة الاستعمار

توطئة بقلم
عبد العزيز بوتفليقة

ترجمة الدكتور ميشال سطّوف
مراجعة وإشراف : سمير سطّوف



منشورات ANEP

إهـــــــــداء ٢٠٠٨

وزارة الثقافة

الجمهورية الجزائرية

جاك فرجيس

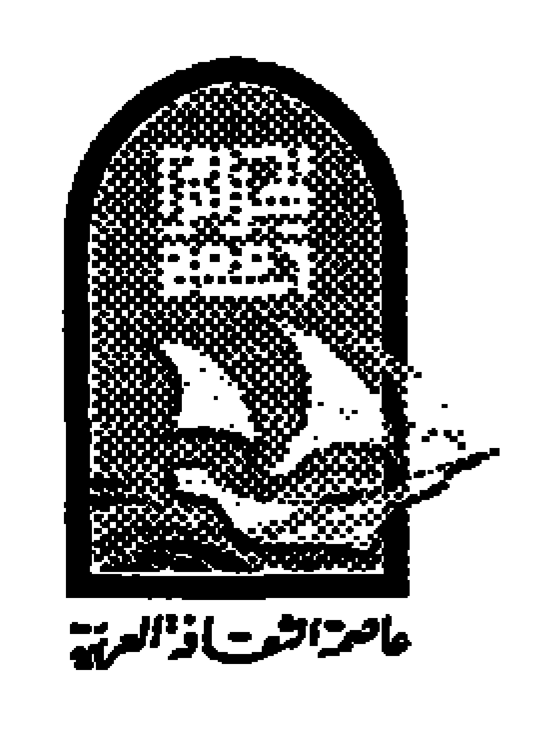
محاكمة الاستعمار

توطئة بقلم

عبد العزيز بوتفليقة

ترجمة الدكتور ميشال سطوف

مراجعة وإشراف : سمير سطوف



منشورات ANEP

في المجموعة نفسها

- **خطاب حول الاستدمار**، إيميه سيزير
- **مجد السيف**، بول فينيه دوكتون
- **حريتنا**، فرنسيس جانسون
- **مواقف مناهضة للاستعمار**، جان بول سارتر
- **صورة المستعمر**، ألبير مامّي
- **الثورة الجزائرية عبر النصوص**، أندريه مَاندوز

منشورات© ANEP
ISBN : 978-9947-21-322-3
Dépôt légal: 695-2007

تـــوطئـــة

لقد كان صوت مناهضة الإستدمارفي بلادنا بالتأكيد، و قبل كل شيء، الصوت الجماعي للشعب الجزائري المسلم، صوت الملايين من (محمد و فاطمة)، في جبالنا و سهولنا، في ريفنا ومدننا، تلك الملايين التي واجهت القمع الإستدماري، وهي تنشد : "من جبالنا" و "قسماً".

ومع ذلك سيكون من الخطأ والظلم أن نختزل معركة الإستقلال في حدود الكفاح - الحاسم بالتأكيد - الذي قاده مجاهدونا و فدائيونا. فحربنا التحريرية لم تجر فقط في جبالنا و شوارع مدننا، بل أيضا في القواعد اللوجيستية على تراب المغرب و تونس و ليبيا، كما في عواصم الوطن العربي، و في فرنسا و إفريقيا، و أيضا في المؤسسات الدولية، حيث حققت صدى عالمياً رائعاً .

لقد كسب شعبنا هذا الصدى العالمي لحرب تحريرنا الوطني، بقوة كفاحيته و ثباته، بيد أنه ماكان ليبلغ هذه الدرجة من الأهمية، و لا شك، لولا أن رجالاً و نساءً من مختلف أرجاء

المعمورة لم يمزجوا أصواتهم و عرقهم و آلامهم و آمالهم مع معاناة و نضالات شعبناالجزائري، لزمن ما أو للأبد.

إني أود هنا التعبير باسم الشعب الجزائري و باسمي الشخصي عن عميق عرفاني إلى جميع أولئك المسيحيين واليهود و"اللاأدريين" والمناهضين للإمبريالية من كل اتجاه. لذا فإنّ أحد أهداف نشر مجموعة "الأ صوات المناهضة للإستدمار" التي بادرت بها، إنما هو بالضبط، إبقاء رسالة تضامنهم الإنساني الفعّال حيّة" و مسموعة".

فجميع هذه الأصوات - كل في تميّزه - على قدر عال من الأهمية. مع ذلك ، فإنّ بعضها يذهب أبعد مدى و يتحدث أكثر قوة من البعض الآخر. فإلى جانب فرانز فانون وفرنسيس جانسون، يصدح صوت جاك فرجيس كواحد من تلك الأصوات الجديدة والمؤثرة والقوية التي ساهمت بطريقة رفيعة في انتصار الشعب الجزائري على الدولة الإستدمارية الفرنسية. لقد أغنى بالتأكيد، كل منهم على طريقته، نظرية و تطبيق حربنا الوطنية التحررية ، بما حمله لها من تجربته الخاصة و من فكره المجدّد و فعله الجدير.

فرنسيس جانسون من جهته كان قد تصوّر وجسّد التآزر الجزائري-الفرنسي المناهض للإستدمار، بدقة و فعالية لا تقارن. وفرانز فانون أيضاً أدى دوراً لايستعاض عنه، في ترتيب مكانة حرب استقلالنا داخل حركة تحرير كامل أفريقيا، كما في مباداراته البصيرة والبعيدة النظرحول المرحلة الثالثة للعولمة، في الوقت الذي كانت فيه مرحلتها الثانية تضاعف من قوتها

وشراستها، أما جاك فرجيس فيما يعنيه، فسوف يكون الوجه الرمز لاستراتيجية جبهة التحرير الوطني في ميدان الدفاع عن المناضلين الجزائريين المعتقلين أمام المحاكم الفرنسية.

كان يمكن لهذا الفتى الأوراسي / الأورو-أسيوي / ابن الجزيرة، الذي ولد في " تايلاند " و قضى شبابه في جزيرة " لارينيون "، قبل أن ينخرط - مثل فرانز فانون و فرنسيس جانسون - في قوات فرنسا الحرة لمحاربة النازية ..كان يمكن له أن يكون محامياً ذا التزام شيوعي، يقبل مهمة الدفاع وفق القواعد المرعية لمهنته في (قصور العدالة) الفرنسية تلك، التي لم تكن سوى المحاكم العسكرية الدائمة، والمرافعة عن المناضلين الجزائريين بأفضل مايمكن لصالح كل من (زبائنه). وهو ماكان يشكل بحدّ ذاته برهان شجاعة نادرة. بيد أن جاك فرجيس لم يتوقف عند هذا الحدّ.

فلقد رفض خيار (دفاع التواطؤ) الذي يهدف إلى تخفيف العقوبات الجنائية لموكليه، ليضع، بالتنسيق مع فيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، استراتيجيةً جديدةً للدفاع عن مناضلي القضية الوطنية الذين يتمّ تحويلهم إلى المحاكم. و لقد كانت الميزة الرئيسية لما أسماه جاك فرجيس " المحاكمة - القطيعة " هي القطع مع الصمت الذي ساد خلال مجريات القضايا السابقة . هذا الخيار الذي كان يعني بكل بساطة، تحويل المحاكم إلى " منابر " لإدانة النظام الإستدماري بكليّته، وتأكيد حق الأمة الجزائرية - الذي لم يكلّ هؤلاء المستدمرون يوماً عن تهشيمه - في استقلالها ضمن إطار جبهة التحرير الوطني.

بالتأكيد أيضا، لم تكن هذه الاستراتيجية من فعل جاك فرجيس لوحده، بل ثمرة جهد (فريق محاميي جبهة التحرير الوطني) الذي تمّ أنهاضه في عام/ 1959/، والذي ضمّ محامين جزائريين وفرنسيين وبلجيكيين، غير أن جاك فرجيس كان بالتأكيد المفكر المبكر والمعلم الأكثر إبداعاً للمشروع، والوجه الإعلامي الأكثر بروزاً، فلقد كان أن وضع مبكراً منذ محاكمة جميلة بوحيرد عام 1957 في الجزائر، مقدمات وأصول استراتيجية " المحاكمة ـ القطيعة "، هذه الاستراتيجية التي لم تتوقف عن التدقيق والتعزيز على طول حرب التحرير، لتصل إلى قمتها التي تجسدت بمحاكمة / فرنسيس جانسون / في سبتمبر 1960 والتي تميزت خاصة بمرافعة جاك فرجيس. والمحكمة هذه، لم " تخطيء التقدير" حين منعت نشرها أو نشر خلاصاتها.

لقد بدا لي أنه من الحق و العدل أن أضع أمام أوسع قطاع من القرّاء اثنتين من مرافعاته، حيث سيتعرّف القارىء بنفسه على مدى البلاغة و المهارة، بل و أكثر من ذلك أيضاً، على تلك الشجاعة التي تميّز بها جاك فرجيس و معه " فريق محاميي جبهة التحرير الوطني ". فلقد نجحوا في مغامرتهم الخطيرة بتحويل قاعات المحاكم الفرنسية المكلفة أصلاً بخنق و تسطيح وتجريم أصوات الجزائر المكافحة، إلى جبهة حقيقية من جبهات التحرير الوطني. فمع جاك فرجيس كفّت قاعات المحاكم عن أن تكون حلقات تابعة للدولة الإستدمارية الفرنسية، لتصبح ساحات مواجهة يمثّل فيها، كلّ إشكال أو تشابك أثناء الجلسة قنبلةً، و كلّ جدال إجرائي لغماً، و كل مرافعة غارة كوموندوس ، تهتز لها وسائل الإعلام .

و مع جاك فرجيس أيضاً، يعود سلاح السخرية "ليقتل" /ضحكاً أو حنقاً / جموع المشاركين والمراقبين في هذه الدعاوى التي تشهد قبل كل شيء أنّ " الحقيقة هي فلاّغة ". فالإزدراء على شفتيه يفعل فعل سلاح التدمير الجماعي لحجج جهاز عدالة الدولة الإستدمارية الفرنسية ، الذي إضطر للتراجع إلى موقع الدفاع، قبل أن ينجرّ إلى هزيمة مخجلة بدءاً من 1960.

لم يكن ليفيد أيّ طريق للقمع في إيقاف هذا " التسونامي " الحقيقي الذي انصبّ يلطم المحاكم الفرنسية منذ عام 1959. كما لم تستطع : لا تهديدات القتل ولا اغتيال المحامي أمقران ولد عوضية أو عمليات الطرد من الجزائر أو الحجز الإداري و اتهامه بالمساس بأمن الدولة ، من أن يثني حماس و إصرار هذه " المفرزة المتقدمة " في معسكر العدو ، التي لم يكن لديها من سلاح سوى الكلمات " كلمات فريق محاميي جبهة التحرير ".

وإذا كانت الكلمات من فم جاك فرجيس تضرب بتلك الشدة التي تربك بوصلة القضاة الأكثر ضراسة، و تتوصل إلى هزّ مشاعر الشخصيات السياسية البعيدة عن التعاطف المجامل، كما هو حال الجنرال ديغول، و تنجح خاصة في تطيير جدار صمت وسائل الإعلام، فليس هذا بداية، بسبب كون جاك فرجيس خبيراً في أصول المحاكم، أو لأنه يشترك بنفس القناعات المعادية للإستدمار مع الشعب الجزائري و جبهة التحرير الوطني، فلقد فعله كثيرون أيضا بفعّالية و حميّة .. بل لأن مهنة المحاماة وولع النضال عند جاك فرجيس يرتعان في روح شاعرية تغذيهما وتتجاوزهما.

لكم يسرني أن أقدم للقارىء، بعد لطيف إذن الكاتب، قصيدتين مختارتين، أو أغنيتين تكشفان عن وجه آخر لجاك فرجيس، غير معروف جيداً، لكنه بنظري حاسم في مساره بالأمس كما هو اليوم .

إن قدره كرجل كان أن ختم، كما هو حال إيميه سيزير وفرانز فانون، بمسار عمليات التهجير الكبيرة والمخيفة التي رافقت المرحلتين الأوليتين للعولمة، و اللتين أدتا إلى إنسانية جديدة، إنسانية " قوس قزح " :

" من ماضي ذاك العنف ولد شعب ،
يزرع من طيبته حيث يسير
وأنا أرث هذا الشعب إرث أمير
أشعر في ذات الوقت " أنّي ابن القرصان الشارب من ماء البحر
ابن العبد الهائم في فوضى العمر والدهر
وابن ذاك الأبيض،
ممن يحمل حاجته فوق كتفيه كأسير
يرحل نحو الجبل
حيث يفترش دفء خضرته كسرير
هرباً من بؤس المدن القارس حيث لا سقف فيها يردعه ..
أ و ظلّ حصير "

" ترجمة شعرية بتصرف "

إنّ ترجمة ذاك القدر الدامي أنشودة وفعل حرّية خلاّقة لأمل لا يعرف التردد، ولجمالٍ مرصّعٍ بالتضاريس الغنيّة للإنسانية كافة، إنما هو نبع الإلهام الانساني الصافي الذي حرّك الكلمة الواضحة والمندفعة، العنيفة والرقيقة عند جاك فرجيس.

كم هو حسنٌ أن يستمر صوته مدوياً في قاعات المحاكم ومنابر الإعلام رغم كل العقبات، في لحظة قد يعاود العصر الثالث للعولمة، وهو على عتبة مدخله، إنتاج واقع معاداة الإنسانية، بصورة كارثية، فلقد حدث وهيمن على العصرين السابقين.

لكل هذا، فإنّ جاك فرجيس كان وسيبقى أخانا في النضال وفي الأمل.

عبد العزيز بوتفليقة

" زرقـــة بحــار الجنــوب "

"ترجمة شعرية بتصرّف"

أشرعةٌ متخمةٌ بالأحلام
ومراكبُ إسبانيةُ تسبق ريح البحر
تُخفي الذهبَ في الأحشاء
ترقص عند أقدام الشاطئ
في مرفأ " بون أنكراج "

قرصانٌ وزنوجٌ وعبيدٌ قد عادوا
وجدوا خدّ البحر الصافي
قد أضحى مَشتلةَ عظامْ
ومغارةُ من كانوا منفيين فيها
قد أضحت فاغرةً كالصحراءْ
لا نَفَسَ فيها..لا أوهامْ

إنّي من تين البنغالْ
تنطلق جذوري منّي في أعماقِ الزمنِ
لا بأس إن كان أولئك حقّاً أجدادي من ذات اللونِ
أم محض خيالْ
فلقد أعتقت الزمنَ
وفضاءَ الروحِ
كي أصبح كل شيءٍ، أو لا شيء في هذا الكون

المرفأ وردي المرجان
والبحرةُ تلبس زنبقة الماء
قبّعة الثلج تغطّي رأس الغيم
هل نحن أخيراً في جنّات نعيم ؟
أتكون جزيرتنا الآن أمامي
بعد أن خرجت من صحن خرائطهم
كيما تطاردنا ؟
ها إنّي أضع فوق صخرتها، حقيبة ظهري المتعب
ثم أغتسل عليها من كل آثامي

لكنّ ظلّي يفضحني
في عين العصفور
أو في درب السلحفاة،
ولطالما ماضيّ موشومٌ فوق جبين القلب
ما معنى أن أبني مملكةً،
إن كانت تشبه ما أهرب منه..
سوف يبقى البحر الممتد حتى ما شاء البحر
وحده ميداني ومملكتي

هي ذي نار العبد الآبق ترتجف عند العصر
أأكون عشت هذا الحلم بالقرب من إمرأةٍ
سوداءَ بلونِ سعادتنا
نلتحفُ الأرضَ بعد أن أنهكنا التعب ،
وجبالٌ زرقاءُ تلتفّ حولنا مثل سوارْ
يغمرها شعر الشمس الذهبي،
وهي تستلقي ظهراً لتنام،
وجهها للأعلى
عينانا تتابع حفل السبق بين الحشرات الحمراء
وهي تحطّ فوق أذرعة العشب،
حيث تطويها الريح علينا.. لتغطينا
أجساماً نصف عارية
تنتظر فينا الترحالْ
حين يمضي سواد الليل في رسم أشكالَ مبهمةً وسطَ الأدغالْ
تقترب منا، ترقبنا
حين ننسى الخوف .. وننسى أنفسنا
ونذوب في صحن العشقِ .. بأطيب حالْ

هوذا رأس العبد المقطوع فوق يد الصيّاد
والأخرى تقبض ما قدّمه الملك من بارود وزناد

انظر كيف يرقص ذاك الطرّاد
كيف يدمي شراع عروس من لون الفرح في الشلال
كيف تتقيأ أثمار المالايو رائحة الموت
كيف تتوقّف قهقهة مجانينَ
كانوا قد زرعوهم في حفرات الصخر
بيد أنّ نيراناً أخرى تشتعل فوق قمم أخرى
فالحرية كالعصفورِ، لا تسري وحيدةْ،
حيث أنّ الحب يلازمها أبداً
و"هيفا" تسير بالقرب من " أنشانغ "
و"إهاريان" ترافق "سيمانديف"
يجرون نحو أجمل موت في العشق .. في ساحات نضال

خلف طاولة الإبنوس الضخمة
يرتاح قضاة غطّاهم فرو القاقم والقرمز
مثل حال اليوم
يتناوب كل منهم في حفل استنطاق سجين
- ألا تحبّ سيدك، يا هذا...؟
لكن هذا لا ينطق شيئاً
حينها تبدأ تمتمة خافتة وسريعةْ

حيث يعلن رأس الجوق حكمه :

ـ سوف نحفر فوق صدركَ

زنبقةً من لون فرنسا

ثمّ ينشدّ الحبل عليه فوق العامود

مثل أحد عشر من أشباههْ

ظهرهمُ للحائط

وقبالتهم إحدى بطاريات المدفعْ،

ثم حين تجهز كل الأشياء وفق ما يبغون

يرفع أيديهم ضباط الموقعْ

وعقيدهمُ يومي بذراعهْ ..

حيث يأتي البحر كي يمسح شيئاً من دمهم

وتحنو وتحنّ فوق جثمان كل منهم، أغطية رمالْ.

هوذا الموت يختطف العشاقَ السودَ

والبؤس يقتاد العشاقَ البيضَ

نحو جزيرتهم .. ثم نحو كوخ القصب ذاته

ولسوف يتسلّق كل منهم ذات الذرواتْ

أو ينزل نحو عمق الهاوية، بالذات :

ولقد يجدون حقل الإينام الطيبةِ

والقلقاس على طول الساقيةِ

بأقل تقدير

ويرون فوق طريق القنفد..

فوق آثار أقدام قواع البريّة

كمارات حمراء بهيّة

وأريج عطر الحطب

وعلى ساق شجرات السرخس

تصطف أنواع السلحب في روعة رونقها المعهود

اقتادوني بالحيلة.. بعيداً عن داري

وبعيداً عن أنغام وعن رقص شعبي

جعلوا منّي عبداً، فاخترت أن أتشردْ

رفقة من خرج عن قانون الغاب .. وتمرّد

حتى، حين ظهرت لي

قمتُ صرختُ : ابتعدي عني،

فأنا رجل دون أصلٍ أو فصلِ

دون كراماتٍ و مقامْ

أجهل مَن هيْ أمي، من هوْ أبتي
وأراقص في الليل الأشباح
مثل ما أغفو في حضن الأحلامْ
فأجابتني من دون غمد :
لا بأس أن تصغي لنصائحك بعض نساء العقلِ
بيد انّي لن أقبل أن أسمع شيئاً منها
ما دمت أذوب في حبٍّ مجنونْ
سرقَ منّي ثوب الخجل
فأنا (بارفاتي)، عطف قديسةِ أقداسِ الهندِ.

قد كانوا أقدم شعب في هذا العالم
أعتق من (هارابّا) ومن (سومرْ)
أخوة صياديي (اللاسكو) و (اللاغوا – سانتا)
كانوا قد تركوا مثلنا أرض الأجداد
نحو جزر مهجورة ..
بيد أنّ البيض قد حضروا :
معول قتل في اليمنى
وقرار البيع في اليسرى
نزلت مئة منهم في (نهر الأمطار)

سخروا من (فينوس) العاجيّة ذات العشرين ألف عام
وضعوا المجرفة في أيدي رسّامي (ألطا – ميرا) ..
ثم سحقوا الأقلامْ..

مثل ما حلّ بذئب (تا سماني)
سوف يُمحى في فجر القادم من أيامْ
أثرُ اؤلئك من أبناء فضاءات الأحلام
ممن لا حول لهم في الحرب .. لا شأن لهم في الإذعان
في نورمبرغ، بالأمس،
كان يتحدث دون حرج ، أبناء سفّاحيهم
باسم الإنسانية عن حقّ الإنسان

حين يُدفن حاكم
ويدور الموكب حول ذاتهْ،
مثل البطة حين يطير عنها الرأس
فليمشي (الرسميون) إثر الصيادين
وليتساءل أهل الدار في صمت
ولينظر كل منهم في مرآة :
كيف يرقص هذا الميت فوق الكفن حتى الصبحْ

لا يلبس غير ميدالياته :

وسام صليب القديس لويس أو وسام جوق الشرف

حتى حين يستنطق هذا الميت

يركــع .. يستجدي الصفح

ها هيْ تغادر كوّتها تلك الملكةْ

وتجتاز الشارع،

تميل على دانتيلاّ السورْ

ثم ترفع عينيها نحو الجبلِ

نحو ذاك الراصد للبحرِ

لكنْ ، ما من قارب يأتي ينقذها

ما من بخور

حينها تعبر ثانيةً ذات البوابة

تجتاز الفيرندا

تشعل محرقة البخور

ثم تشبك أيديها وتصلّي

صلاة المأسورْ

سعيد علي في المنفى
يذهب كل صباح للجامع
في سكّة (الشارع الكبير)
ثم يقفل دورته دون أن يرمي بناظره
نحو أصحاب القبعة ، ممن يرقبه طوال السير
عبد الكريم في (شاتو مورانج)
يتقدم حارسه - الضابط .. بثلاث خطوات
(دوي تان) يترك أترابه كي يلتحق بفرنسا الحرّة
هوذا السلطان و الأمراء والامبراطور
في مقبرة القاهرة.. أو في كبرى (الكومور)
أو في(هوٌ).. حيث يرتاحون
يبقون معنا ، دون مغادرة أبداً ، كالمسحور
أين ما نام موتانا في هذا العالم
فلسوف يعودون إلينا .. أيّاً كان البعد
من ذات أوروبا أو من أعماق البحر
من أفريقيا أو من حضن الهند
وسواء كانوا عبيداً أو ذات أميرة غينيا ..
(نياما) تنتزع ابنها (جان باتيست) من أذرعة (آراغو)
ومن أكاديميات علوم

ولقد غادر (لاكوساد) دون أن يكمل بعد قصيدته السحرية
كيما يجلس عند أقدام أمّه (فاني)
هوذا فارس (بارني) المجهول الأصل
يجمعنا أخيراً بخطيبته الملغاشية

فوق جناح الريح العابث في أزهار الباغودْ
يمضي الزمنُ نحو شبابه
حيث يتغير فيه وجه الماضي
فيبدلُ من أثوابه
(بودا) يبتسم (لشيفا) وهو يرقص
مختالا بين العطر وبين البارود
مثلما تبتسم العذراء السوداء
لآلهة الغابة

فوق خوخة (سيتير)، من بين جزر اليونان
جلس جمع رجال - والكأس تدور - غرقى في النسيان
ونساء تبكي وسط الدار حول الجثمانْ
فلقد رحل الطفلُ
يمكننا بعد، رؤية تلك الأفعى الحمراء الجارحة

تتلوى تحت قميص أبيض .. في استهتار

ورجال الدرك مصطفّون حول البستانْ

في الصبح الباكر يمضي آخرهم

ليعودوا عند الغسق لحضور الدفنِ

وبأيديهم لافتة إثر لافتةٍ

تطلب إحقاق العدل، وبعض حقوق الإنسانْ

كم كان يحبّ الأزهار

فلنكسوا من حمر القنا قبره

كم كانت شفتاه تعض ـ من فرط العشق ـ أصابع تبغ ملتهبة

فلنزرع منها إثنا عشر من حول حجره

فلسوف يتنفّس فيها ، وهو يحلم حين كان يداعب ريح بحره

كم كان يحبّ شراب (الروم) ، بعد أن أودعه نبت الفانيلاّ عطره

فلنملأ منه ثلاث كؤوس

فهو سوف يشرب منها نخب كلّ منّا

لا ننس حين صرخ فينا .. يشجّعنا

قبل أن يسحب منه العنقَ سيفُ قدرهِ

وشقيق القرصان الأبيض

أسود يحفظ جمجمته .. بعميق تقواه وسرّه

لكن ، فلنرحل منتصف الليل

قبل أن تأتي ضحاياه

وتسحب بين ايديها : نجوانا منّا

فهي مثل شهيق الروح، لا ترتاح

وتدوم فوق تلات الأحلام كالإكليل

هذا وريد من دم

يعبر في زرقة البحر بأحشاء الجنوب

مثل أفعى في سماء الليل

صاغها النور لما بعد الغروب

مثل لمع البرق في بطن البحيرة

مثل خنجر أبيض قد غار في ثدي امرأة

سوداء يسكنها الأصيل

مـن أجـل " جميلـة بوحيـرد "

" مرافعـــة عنها "

/ الجزائر 14 - 15 جويليه 1957/

بدايــة، أنحني أمـام ضحايا (الكوك هاردي) و (ميلك بار) مثلما أنحني أمـام ضحايا (القصبة) و (الكازينو)، و أولئك في بلكور وباب الواد ، في ملعب الجزائر و ملعب (فيليب فيل) الذين تحولوا إلى مقبرة جماعية.

من السهل ـ بالتأكيد ـ اختيار المرافعة بسلوك " الإعتراف بالذنب ". فهو المسلك الذي ـ على مايبدو ـ يستجلب رأفة المحاكم تجاه المحامي. بيد أن الدفع باعتراف المتهم بالذنب حين يكون بريئاً ، يفترض حذاقة كبيرة مني، و هو ما أعتذر عنه أيها السادة.

إن ملف الشرطة ـ و هو الوحيد الذي بين أيدينا ـ يبني على اعترافات جميلة بوحيرد ، كامل تحقيق " المظليين " .

وبوفائكم لمنطق تسلسل الأحداث، كنتم قد بدأتم استنطاقاتكم باعترافات " جميلة بوعزّة "، و هو النسق الذي سوف أعتمد.

في 9 ماي 1957، توجه السيد / جورج فرناند /، ضابط الأمن القضائي، بناء على طلب النقيب / غرازياني / من مكتب رئاسة أركان الجنرال / ماسو/ إلى موقع قيادة الكتيبة ، حيث وضع ضابط المظلية تحت تصرفه فتاة في التاسعة عشر من عمرها : جميلة بو عزّة التي كانت قد قضت (15) يوماً بين أيدي المظليين . في الوقت الذي كان من الممكن تحويلها إلى العدالة العادية . بيد أن الأمن القضائي احتفظ بها يومين إضافيين.

حين تقديمها أمام قاضي التحقيق، وهي تحرص على " أن تؤكد، بداية، على المعاملة الحسنة التي حظيت بها، سواء من طرف المظليين أم من طرف الشرطة، فهي لم تتعرض إلى

العنف و لم ينقصها شيء، بل وقد وضع تحت تصرفها كل ماطلبته ، و تمّ إطعامها بشكل جيد ".

" و زيادة على هذا الإستنطاق العسكري ، فإنها تضيف تأكيدها لما جاء فيه ".

" لقد التحقت بصفوف جبهة التحرير الوطني بواسطة خطيبي /عبد المجيد حطّاب / الذي كنت قد تعرفت عليه منذ ثلاث سنوات ، و الذي كان قد ارتبط / بجميلة بوحيرد/ التي اتخذت لقب / حسيبة / في الحياة السرية ".

و تكون قد وضعت في 9 نوفمبر 1956، بناءً على توصية جميلة بوحيرد ، قنبلة في برميل قمامة في شارع (ميشلي)، و أخرى فيما بعد في 26 جانفي 1957 أدّى انفجارها إلى ضحيتين و عدة جرحى في مقهى (كوك هاردي).

و لقد اعترفت جميلة بوحيرد من جهتها بتاريخ 21 أفريل في ملحق لاستنطاقها تاريخ 24 أفريل في مركز قيادة الكتيبة أمام ذات ضابط الأمن الذي استدعاه ضابط المظلية ذاته بـ : "إني تحدثت لكم عن محمد حطاب، بيد أني نسيت أن أذكر بصدده مايلي :

" لقد حضر هذا الأخير، ذات يوم، ليبلغ (ياسف) برغبة فتاة بالعمل لصالح (الجبهة)، لم أكن شخصيا حاضرة أثناء هذه المحادثة، بيد أن ياسف أطلعني على ذلك و طلب مني أن أتصل بها، و ذلك بالذهاب إلى شارع 8 نوفمبر، حيث سأتعرّف عليها من سترتها الحمراء.

" ذهبت إذاً، و وجدتها وفق المواصفات التي قدمها لي ياسف الذي حدّد لي أن أقول حين مصادفتها : إني أتيت من طرف سيد أحمد.. ، و لقد قالت لي : إني موافقة ، أرغب بالعمل لصالح الجبهة " .

" أجبتها بأني سأعود حين أتلقى الأمر من ياسف . لقد كانت تدرك طبيعة المهمة التي تقوم على وضع القنابل في المؤسسات العامة ".

وفي الغد ذاته، قبلت جميلة بوحيرد بالتصريح لقاضي التحقيق، دون حضور المحامي الذي وكّله أهلها :

"بأني أعترف بانتسابي إلى جبهة التحرير الوطني، و ذلك منذ أواسط نوفمبر 1956.

إنّه، عمي مصطفى بوحيرد الذي قرر أن أخدم هذه القضية، حيث كلفني بإطعام ياسف سعدي، وعلي لابوانت وعليلو الذين التجؤوا عنده. كنت أعلم أنهم من مجاهدي جبهة التحرير الوطني، و لم أكن لأقبل بما هو أقل.

" لقد كان عمي يوفر التموين من جهته، و أنا أجهّز الطعام.

"و لقد كان نشاط ياسف وعلي لابوانت يقوم - بين مهمات أخرى - على بناء الجدران المعدّة لتخزين القنابل التي كان يصنعها على السطح أناس لا أعرفهم ".

و أثناء "الإستنطاق الأول" في 20 أفريل، اعترف طالب كلية العلوم في مدينة الجزائر (طالب عبد الرحمن) الذي كانت القوات المظلية قد اعتقلته في 12 أفريل : " أخبرني ياسف بأن

جميلة قد وضعت قنبلة في (ميلك بار) وحسيبة وضعت قنبلتها في (الكافيتيريا) و زهرة في ساحة موريتانيا.

جميلة بوحيرد كانت قد جرحت وانكسرت ترقوتها حين أطلقت دورية النار عليها في شارع سفنكس، على السادسة من صباح 9 أفريل.

السيد جورج فرناند، ضابط الأمن القضائي، يسجّل في تقريره الذي وجّهه بعد 16 يوماً إلى مسؤوله المباشر، محافظ المنطقة، قائد المفرزات المتحركة لمحافظة الجزائر : أن جميلة بوحيرد كانت تحمل حقيبة من جلد تحتوي على :

1 ـ وثائق جِد هامة تتعلق بنشاط الولاية الرابعة و موجّهه إلى سي رمضان (عبّان رمضان) عضو اللجنة القيادية لجبهة التحرير الوطني.

2 ـ وثائق تخص نشاط جبهة التحرير الوطني في مدينة الجزائر.

3 ـ عدد من الأختام المختلفة التي تخصّ البلدية و الولاية.

4 ـ مبلغ ثمانمائة ألف فرنك.

و يتابع :

" لقد تركت للتو ياسف سعدي الذي كلفها لجهة نقل وثائق جبهة التحرير الوطني و التي ضبطت في حوزتها.

" و كان قد تم اصطحاب جميلة .. دائما برفقة كل من ياسف وعلي لابوانت و عليلو وحسيبة و زهرة، للجوء عند عمتها في

(شارع عبد الراحم) ثم عند حمّي ياسف، ردب سيلان، قبل أن تعبر عند الباشاغا بوطالب و تحط في شارع النيل، حيث كان عليها أن تبقى هناك حتى يوم اعتقالها.

" ففي اللحظة التي كانت المجموعة تتأهب لتغيير المكان مرة أخرى لملجأ جديد، فإن جميلة جرحت و اعتقلت و هي تنقل الوثائق.

" ثم يخلص ضابط الأمن القضائي إلى أنّ اعتقال المدعوة جميلة بوحيرد سمح باستعادة تجهيزات هامة ووثائق مختلفة، وبتأكيد انتمائها لجبهة التحرير الوطني، وهو ماكنا نعلمه.

" و رغم أنها كانت متحفّظة جداً حول دورها كعنصر ارتباط، فإن هناك مايدعو للإعتقاد بأن دورها هذا هو أكثر أهمية، نظراً للثقة التي اكتسبتها لدى ياسف.

" وختاما، من غير المستبعد ـ رغم غياب أي دليل يدعم تحقيقنا ـ أن تكون المدعوة جميلة بوحيرد كما رفقاؤها هم واضعوا القنابل الأولى التي انفجرت في (ميلك بار والكافيتيريا) (هكذا إذن ـ مرة أخرى).

في هذا التقرير الجد مفصّل الذي وجّهه السيد جورج فرنانـد إلى مسؤوله المباشر يوم 21 أفريل ، فإننا لانجد كلمة واحدة عن اعتداء (كوك هاردي) رغم أن هذا الضابط كان قد تلقى في اليوم ذاته اعترافات من جميلة بوحيرد تخص هذه العملية بالذات.

إذاً، و بعد 5 أيام من الإعترافات التي قدّمها الكيميائي (طالب) فإن السيد جورج فرنان يتقدم فقط بافتراضية صرفة لا

يدعمها أي دليل، تقول بمشاركة جميلة بوحيرد باعتداءات (ميلك بار أوالكافيتيريا)

و بالمقابل فهو متأكد من أنّ دور جميلة بوحيرد التي حظيت بثقة ياسف كان أهم بكثير مما أقرت به.

إني أدع الحديث لجميلة بوحيرد ذاتها :

" منذ وصولي إلى المستشفى، خضعت إلى استنطاق أشخاص عدّة، من بينهم، ثلاثة نقباء، و ثلاثة مفتشي أمن و ثلاثة مظليين بقبعة حمراء.

" لم يكونوا يترددون بتوجيه اللكمات لي لإجباري على الكلام.

" ذات يوم أقدم ملازم أول، أبيض طويل يضع نظارات بيضاء، على تجريدي من ملابسي أمام ثلاثة نقباء و ثلاثة أفراد أمن ومظليين اثنين بقبعة حمراء، و قام بملامسات مخلّة بالحياء أمامهم ، مهدداً بأنهم سيجلبون لي سينغالياً سبق له أن خدم على نساء مسلمات.

"و حين كنت أحاول دفعه بذراعي السليم، كان يقابلني بالضرب على جرحي ، مما كان يثير ضحك الآخرين.

" في ليلة 17 / 18 أفريل، نحو الساعة التاسعة ليلا، حضر ثلاثة نقباء ومظليين اثنين لاصطحابي، حيث وضعوني معصوبة العينين في سيارة سارت باتجاه مجهول، ليتوقفوا في فيلاّ أعتقد أنها ليست بعيدة عن مطار الدار البيضاء، إذ أنني كنت أسمع طوال الليل صوت محركات الطائرات.

هنا وضعت في غرفة و تعرّضت للضرب.

" ثم قاموا بتعريتي و ربطي على مقعد، و بوضع خرق رطبة تحت رباط المعصمين و حول الذراعين، و على البطن، و حول الفخذين و العقبين و الساقين.

" حيث ثبّتوا حينها النواقل الكهربائية في المنطقة الجنسية، و الأذنين، و الفم، و في داخل اليدين، و أطراف الثديين و على الجبهة.

" لأنتهي قرابة الثالثة صباحاً في حالة إغماء و هذيان.

" تعرّضت للضرب مجدداً يوم 18 أفريل، ثم وضعوا سلكاً معدنياً حول إبهام القدم ليمرروا التيار الكهربائي.

" استمر التعذيب يوم 19، و تفتّق جرح صدري فاغراً.

" في كل مرة كان أحد المظليين يمارس التعذيب، كان الآخر يدوّن استنطاق أحد النقباء (وهو قصير و كستنائي بلكنة الجزائر العاصمة) .

" يوم 21 نوفمبر تمّ اقتيادي إلى الموقع الرئيسي للكتيبة في الأبيار".

هناك كان على جميلة بوحيرد أن تجد أخاها الصغير / حمادي / ذا الـ 11 عاماً ، مع أخوي ياسف و ابن أخيه / مواكلي / ذي الـ 14 عاماً، حيث استنطقوا جميعاً حول عنوان الأخ أو العم أو الزعيم أو الصديق، ذاك العنوان الذي يجهله الجميع باستثناء جميلة بوحيرد.

هكذا كان المظليون يضغطون عليها كي تتكلم لأنها الوحيدة التي تعرفه، إلاّ أنها لا تفصح عن شيء. و ياسف من جهته مازال حراً.

إذاً ، كيف يمكن لها أن تتحدث عن اعتداءي (شارع ميشلي وكوك هاردي) ؟ حيث لايمكن لدورها فيهما أن يترك أي أثر ، فهي تكون قد نقلت بكل بساطة علبة إلى فتاة لا تعرفها ، علاوة على ذلك فإن هذه الفرضية مستبعدة تماماً .

و كيف يمكن لقائد بذكاء ياسف أن يستخدم لمهمة إرهابية عنصر ارتباطه مع (لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التحرير الوطني). كيف يمكن لقائد بحذر ياسف أن يضع بين عنصر إرهابي جد معرّض للخطر و بينه بالذات ، عنصر ارتباط وحيد، واضعاً هكذا أمنه و أمن منظمته تحت رحمة احتمال قصورين فقط .

لماذا، بين ألف إسم، تختار جميلة بوحيرد اسم صديقتها " حسيبة " ، التي هي ذاتها عنصر ارتباط لياسف؟ ، و توجّه التحقيق هكذا نحوها بالذات، في حين أن اختيار" اسم حربي "يجنح بالضبط لتجنب ذلك ؟.

إن هذه الإعترافات، كما تؤكّد جميلة بوحيرد، ليست حتى موضع انتزاع قسري فقط، بل هي مختلقة بكل بساطة.

كما هو مختلق ذاك التبليغ الذي يقال أنها قدّمته في 9 أفريل عن مخابيء القنابل التي لم يتم اكتشافها في الحقيقة سوى في يوم 18 - بالاستناد إلى معلومات مخبر " حسبما أعلن عنه مصدر رسمي في صحافة الجزائر تاريخ 20 أفريل.

و جميلة بوحيرد تذكّر أن السيد جورج فرناند لا يشير إلى هذه الإعترافات المزعومة لا في استنطاق 24 أفريل و لا التقرير الملخص الذي دوّنه في يوم 25. و هي تستخلص أن الملحق

المؤرخ في 25 أفريل إنما يلي في الواقع اعترافات جميلة بوعزة يوم 9 ماي.

إذاً، كان الملحق فعلاً ليوم 25 أفريل، يوم اعتقال جميلة بوعزة. لماذا الإنتظار إذاً حتى تاريخ 9 ماي من أجل دفعهن لتأكيده؟، طالما أن النقيب المظلي والشرطي اللذين كانا مكلفين بها هما ذاتهما اللذان تابعا جميلة بوحيرد، و أن جميلة بوعزة كانت تجيب ـ على مايبدو ـ دائما بكل طيب خاطر.

كما أني لا أعرف الأسباب التي أدت إلى رفض تسليمي الملف حتى تاريخ 16 ماي، أي بعد استنطاق جميلة بو عزة، أو لماذا لم تتهم جميلة بو حيرد بالإشتراك بالقتل قبل هذا الإستنطاق ؟.

لم يكن هناك في الملف سوى صورة عن الملحق ـ الذي أخفيت بنظري نسخته الأصلية ـ حتى هذا اليوم (15 جويليه).

إنّ التفسير الذي اعتقدتم بضرورة تقديمه حول هذا الخلل، سيدي الرئيس، لا يفسّر شيئاً في الواقع . فإذا كانت النسخة الأصلية موجودة، ما كان لها أن تكون خارج ملف جميلة بوحيرد، ولا يمكن لها ان تكون في مكان آخر، حيث أنّ الملفات الأخرى لم تتم إضافتها إلى ملفها إلاّ في شهر جوان.

أما بخصوص الاعترافات المسجّلة أمام قاضي التحقيق، فإنّ جميلة بوحيرد لم توقعها، بل أنكرت، مباشرة، حتى مجرد الادلاء بها.

يوم 26 أفريل، وبينما كان الضابط المزعج من الأمن القضائي يسهر على باب جميلة بوحيرد ، اعتقد قاضي التحقيق حسناً أن ينتقل من استنطاقها حول الهوية إلى الإستنطاق حول الجوهر

دون أن يخبرها بوجودي ، تماماً كما لم يعتقد بضرورة إخطاري باستنطاقها . فقط الصدفة و اليقظة قادتاني إلى عين المكان . لقد طلبت الإطلاع على الإعترافات التي تكون قد أدلت بها جميلة بوحيرد ، فكان أن انتفضت عند السطر الأخير ، فهي لم تتكلم أبدا عن القنابل ، حيث أضافت :

" إنهم المظليون الذين أرادوا ذلك " .

و أخيرا ، قبل (طالب) الذي اقتيد يوم 29 أفريل أمام قاضي التحقيق بالإجابة دون محام، حيث أكـّـد - من يأسه - كامل اعترافاته (صحيحة كانت أم مغلوطة) باستثناء السطرين الذين عنيا جميلة بوحيرد ، حين أعلن أنهما " مضافان " :

" على العكس مما تقولون لي أنه يخلص من التحقيق ، فإن ياسف لم يحدد لي أن جميلة هي التي وضعت القنبلة في " ميلك بار " .

فلنلاحظ إذاً ، أن (طالب) كان قد خرج من أيدي المظليين، وجميلة بوحيرد لم تفصح عن السّر في السجن المدني لمدينة الجزائر ، وأنه ليس هناك أي احتكاك ممكن بينهما .

هكذا ، و دون أن نعرف لماذا ، نجد إصراراً مسلطاً على الربط بين اسم جميلة بوحيرد و بين اعتداءات القنابل ، في الوقت الذي سبق و أودى إصرار من الطبيعة ذاتها و للإعتداءات نفسها بحياة/ ريموند بيشار/ . فقبل اعتداءات جانفي ، طرح اسمها في الصحافة. والمظليون كانوا باعتقالها قد فجّروا " مؤامرة الليبراليين ". فريموند بيشارهذه قد اعتقلت و استنطقت إذاً، ولم يعلن عن نعيها حين موتها. وهو مايفسّر وجود هذا الجثمان

المسيحي لعدة أسابيع إلى جانب الفتيات المسلمات. كما أنّ ملفّها لم يكن يحتوي إلاّ على صورة لها كانت قد وزّعت على رجال الدرك بهدف اعتقالها. أما القاضي الذي أخطر بخطأه تراجع عن اتهام كل من جبهة التحرير الوطني، والحزب الشيوعي الجزائري، و حاول طرد الجن بإصدار (البراءة بعدَ الوفاة).

وهكذا لا يبقى إذاً حول مساهمة جميلة بوحيرد في الإعتداءات المذكورة سوى الإعترافات التي أدلت بها جميلة بوعزة بعد (15) يوماً من إعتقالها عند المظليين .

غير أن تاريخ أول اعتداء بالقنابل في (9) نوفمبر يتطابق ـ دون أن يعترض أحد أبداً ـ مع فترة لم تكن جميلة بوحيرد قد التحقت بعد " بالجبهة " .

و غير أن (بوعزة) تعود في عديد رسائلها الموجهة إلى قاضي التحقيق أو إلى خطيبها (و التي احتجزت) عن اعترافاتها هذه ، سواء ماتعلق بها شخصياً أو ما عنى جميلة بوحيرد.

" جميلة بوحير هي محض قبو، و لاتعرف شيئاً "، كتبت إلى أخيها في 25 جوان 1957 ".

و (بوعزة) تقوم أحيانا باتهام خطيبها، و أحيانا أخرى تهدده، متمنية دائماً ألاّ يصاب بأذى ، فقد كانت تردد مراراً أثناء المحكمة، و هي متوجهة إلى جميلة بوحيرد :" يجب ألاّ يموت".

إن كامل الإتهام يستند إذاً ـ و فقط ـ على أقوال جميلة بوعزة. و من مختلف اعترافاتها ، المتناقضة ، لم يتم الإحتفاظ إلاّ بتلك التي استغرقت (15) يوماً كي تتبلور عند المظليين. فقد تم

استبعاد الإعترافات الأكثر أهمية، تلك الإعترافات العفوية، أو تلك السرّية الموجهه إلى الأخ أو الصديق، و تمّ الإحتفاظ من بين مختلف السبل المطروحة، بواحدة لا تستند إلى أي دليل .

لقد تجمّعت في جميلة بوحيرد كل مواصفات " الرهينة " الثمينة. فكما يذكر التقرير (الأدبي) للأمن بناء على معلومات مجهولة المصدر، فإنها ذات " أخلاقيات مشبوهة و معادية للفرنسية ". و لاشك أن توصيف تلك الأخلاقيات هو بسبب هذه المعاداة .

و جميلة هذه، هي البنت البكر لعائلة متواضعة ، لها خمسة أخوة، نور الدين ، طالب فلسفة في باريس ، الياس ذا الخمس عشرة سنة و الذي تعرّض للتعذيب طيلة ليلة كاملة في شهر فيفري على يد المظليين بحثاً عن ياسف ، هادي و هوالآن ضيف النقيب غرازياني ،و عزيز و نذير .

عمّها مصطفى الذي أدخلها صفوف جبهة التحرير الوطني، قتل في (11) مارس على يد المظليين في وسط (القصبة) تاركاً أرملة و خمسة أطفال.

هكذا تبدو جميلة بوحيرد، بدافع ثأر البعض و ترهيب الآخرين، الفتاة المسلمة المثالية لسوء حظها. فهي أفضل عناصر الإرتباط بالنسبة لياسف الذي ميّزها لروح المبادرة والإخلاص و الشجاعة لديها، و هي التي كانت تشق الطريق أمام المجموعة الصغيرة في شارع سفنكس، حاملة حول عنقها الوثائق و الدراهم ، و إذا كانت قد سقطت جريحة فلأنها أنذرت رفاقها ووفّرت لهم فرصة الهرب .

ليس هناك مايفسر البطء المثير للإجرارات المفروضة بعد شكوى جميلة بوحيرد ضد هؤلاء الذين احتجزوها و هدّدوها وعذّبوها طيلة (17) يوماً .

" أكثر من (5) أسابيع بعد اعتقالي، و شهراً بعد خطفي من قبل المظليين، و (3) أسابيع بعد تقديمي للنيابة، لم يتخذ أي إجراء بحق هؤلاء الذين ضربوني و عذّبوني و أهانوني، و ضد هؤلاء الذين خطفوا أخي الصغير ذا الـ (11) عاماً و ابن أخ ياسف سعدي ذا الـ(14) عاماً، كتبت جميلة إلى قاضي التحقيق العسكري في 16 ماي :

" فقط ، في 14 ماي ، حضر طبيب لتفحّص الآثار - وهي عادة ما تكون عابرة - للاعتداءات وعمليات التعذيب الكهربائي، فوق جرحي الذي مازال مفتوحاً ، كما فوق ثدييّ وفخذيّ .

"هكذا عليّ أن ألاحظ أنّ العدالة التي يراد تقديمي أمامها، ليست بالعادلة.

" فليس بمقدوري بعد العذابات التي لاقيتها - وهي أشدّ وطأة من الموت بحكم طبيعتها المهينة - على يد ضباط فرنسيين في المستشفى العسكري وفي مراكز الجيش، من أن أنكر لمحكمة عسكرية - ليس فقط غياب الكفاءة - بل أبسط الحقوق المعنوية لمحاكمتي . إنّ موقفي هذا لايعود قطّ لخلفية سياسية، أو حتى إلى التزام وطني سلكته، بل بكل بساطة إلى موقف أخلاقي.

" كما ليس من حقّ الضباط الذين قاموا بتعذيبي أن يهينوا الكائن البشري، مثلما مارسوا التعذيب الجسدي على شخصي، والأخلاقي على ذاتهم .

"ولن يكون بمقدوري ـ طالما أنّ هؤلاء الجلاّدين لم يلقوا عقابهم العادل ـ أن اتعاون مع من لا يستطيع أن يكون سوى محاكاة للعدالة ".

ثم كتبت في 18 جوان : " لقد وضعت شكواي في 27 أفريل بين يدي عميد قضاة التحقيق ، لافتة انتباهه حول استعجالية الكشف الطبي . و طالبة منه بإلحاح تعيين طبيب فوراً . بيد أنّ القاضي انتظر عشرة أيام لتسمية الطبيب ،كما انتظر هذا الطبيب سبعة أيام أخرى للحضور ، ولكي يتفكّه بأنّ شيئاً لم يحصل خلال الـ 17 يوماً ":

إنّ الطبيب / غودار / سجّل مع ذلك وجود ندبتين بطول 6 سم على الخاصرة اليمنى لجميلة بوحيرد. وقد عزى وجودهما إلى الاحتكاك أو سقوط ما أو وقع عصا.

" في الواقع، تتابع جميلة بوحيرد، تعود هذه الندب إلى الأربطة التي كانت تشدني حين كنت أتخبط من شدّة الألم الذي كان يبعث النشوة لدى أولئك الضباط، و لقد كان الطبيب غودار يعرف ذلك جيدا، حيث أن آثار الحروق على المناطق الأكثر حساسية من جسدي كانت ـ كما هو حال أخواتي المعتقلات ـ وبالخصوص حالة الطبيبة جانين بلخوجة ـ تشهد بذلك، كونها بقيت منظورة حتى تاريخ 30 ماي ، بيد أنه فضّل عدم رؤيتها، حيث تثبت معاً " حقيقة التعذيب الذي لاقيت وساديّة أولئك الضباط الذين مارسوه.

و الطبيب الخبير، بدافع إرادته المسبقة نكران كل شيء، توصّل ـ رغم أني جرحت في عرض الطريق و أن السيد حافظ

الأختام ذاته أكّده بناء على مساعي محامي، إلى الإدعاء بأن جرحي المفتوح بفعل اللكمات ليس سوى ناسور مرض السل، وأن الندبة النظيرة لمدخل الرصاصة في ظهري ليست سوى ناسو آخر، بل أن آلام حركات ذراعي الأيسر الناتجة عن الجرح و العنف البدني الذي خضعت له ، لاتجد تفسيراً .

" و بالوقت ذاته فقد تحفّظ عملياً على طلب إجراء تحليل جرثومي أو صورة شعاعية ،كانا سيدحضان أقواله"

هل هناك ضرورة للإشارة إلى أن جميلة بوحيرد لم تتلق يوماً جواباً لذلك. فلا التحاليل الجرثومية ولا الصورة الشعاعية عرفتا طريق التطبيق.

زيادة، ليس هناك أثر للنقباء الثلاثة، وضباط الأمن الثلاثة والمظليين الإثنين بقبعتيهما الحمراوين. هذا رغم سجل الدخول والخروج في مستشفى مايو العسكري، و رغم وجود قرار في ولاية الجزائر يلزم بإقامة جميلة بوحيرد لدى المظليين ، و مع أن النقيب غرازياني يمكنه الإفصاح عن النقباء الآخرين الذين سلّموه جميلة بوحيرد، وعن التاريخ المحدد والحالة التي كانت فيها، كما يمكنه القول إن كان يعرف خاصة ذاك النقيب القصير والكستنائي صاحب لكنة الجزائر العاصمة .

و السيد جورج فرناند ضابط الأمن القضائي، له أن يفصح، من جهته، عن ذاك الذي أجرى الكشف على الوثائق المحتجزة يوم 9 أفريل.

و بمقدار ماكانت الإجراءات بطيئة للرد على شكوى جميلة بوحيرد بمقدار ماكانت أجهزتكم متعجّلة بتوجيه التهمة لها،

لقد أهملت كل السبل التي لا تقود إلى (عنصر ارتباط) قائد جبهة التحرير الوطني في مدينة الجزائر.

لقد عادت جميلة بوعزة و هي محطّمة نفسياً بعد إقامتها لدي المظليين طيلة 15 يوماً، دون أن يكون هناك مايفسّر طول هذه المدة طالما أنها كانت تتجاوب معهم " عن طيب خاطر " . ولقد كتبت عديد الرسائل الملتبسة إلى النقيب غرازياني و إلى الطبيب الضابط الذي كان معنياً بها : " تذكّروا بقعة الدم التي كانت موجودة على قميصي النسائي من النايلون ، أعتقد أن كل هذا ليس بالطبيعي ". (رسالة 2 جوان)

سيدي الرئيس، حين سألتموها بصبر لا يمنح إلاّ إلى المجانين، إن كانت قد عانت ، أجابتكم " بضحكة شرهة " : " كلا أبداً ، كلا أبداً ، مامن اعتداء على الإطلاق ". و إني أذكر هنا ماجاء في الصحافة . في حا ل غيابه عن محضر الضبط .

لقد دفع سلوكها داخل السجن الطبيب / غو بريزونيير/، طبيب السجن ، إلى وصفها في تقرير 3 جوان المرسل يوم 4 إلى السيد مدير السجن المدني في الجزائر : بالخطير جداً، وتقديره أنّ حالتها أصبحت تستدعي علاجاً نفسياً. المدير ذاته كان قد ألزم بوضع سترة المجانين لها يوم 3 جوان بالقوة، كما أن الأدوية المهدّئة بقيت دون أدنى تأثير عليها، مما ينفي افتراضية التمثيل .

كما أبلغ رئيس الحرس شكوى جيرانها منها ، و رفض مدير السجن يوم 10 جوان للسيدة / ميرا / من نقابة المحامين في باريس، الاتصال الحر معها، بدعوى حالتها العقلية ، كما أعلن.

والحارسات، كل من السيدات : كوسّاد - بياس - أرنو - فرّاند - فرومانشّتي، يعتقدن من جانبهن أيضاً، في الرسائل الموجودة داخل الملف ، بأنها : مجنونة و خطيرة .

لديكم أيضاً داخل الملف رسالة من محتجزة تحتوي تأكيدات أخرى يمكن التحقق منها بسهولة.

" إنها تتلفظ بعبارات متناقضة، تغني وتصرخ، توجه إلى بابها لكمات شديدة العنف، تنام قليلاً رغم كل المهدئات التي تعطى لها، لقد أقدمت على ضرب العديد من مراقباتنا، تمزق كل مايوجد في سريرها : الفراش - الأغطية - الملابس ... الخ، وترمي بغائطها على كل شيء.

" و على إثر هذا السلوك، و بهدف نسبي لتحجيم الخسائر كما لمعاقبتها على تصرفاتها التي لا تتحمّل في الواقع مسؤوليتها ، فهي تعيش في ظروف مرعبة جداً، حيث هي محتجزة في زنزانة أوصدت بالإسمنت كل فتحاتها تقريباً ، دون ماء أو هواء، و دون فراش أو لباس، و لا تخرج أبداً إلى باحة السجن، كما هي محرومة باستمرار من الإستقبال وقفة الطعام والطرود والطعام المشترك، حيث ليس لها ماتأكل سوى قصعتها التي غالباً ماتقذف بها على جدران زنزانتها التي تفوح منها روائح منفّرة.

" إنه لأمر فظيع رؤية كائن بشري يتألم إلى هذا الحد."

هكذا، و سواء كانت مذنبة أم لا ، موضع تعذيب أم لا، محط ابتزاز أم لا، ذهانية أم لا ... فإن جميلة بوعزة لم تعد مؤهّلة للإستنطاق دون أن يشكك بكل التحقيق ، و بالتالي بالمسؤولية الجرمية لجميلة بوحيرد.

لم تستنطق جميلة بوعزة بعد ذلك.

لقد كان الكشف النفساني لها ناقصاً، بدعوى أن تحليلاً أكثر جدّية قدّر له أن يكون وفق الكلمات القوية للسيد الطبيب الخبير، " مزعجاً لمحفظة نقوده "، فهل يكون (رأسها) أقل ثمناً؟

لقد طلبت محاميتها السيدة / كينغ /من نقابة محاماة باريس كشفاً معاكساً.

و إذا ماتمّ إعلان متهمتها الوحيدة : فاقدة للصواب، فإنه يتوجب البراءة لجميلة بوحيرد (الحيّة) كما منحت هذه البراءة إلى ريموند بيشار (ميّته) . لذا يتوجب معاودة التحقيق بالكامل.

لم يقدّر السيد قاضي التحقيق أنه لمن المفيد أن يجيب.

مع ذلك، ومن خلال جنون جميلة بوعزة، وترددات (طالب)، و حذر الخبير، و "رقيات" القاضي، فإنه لا يمكن مقاومة ظهور الحقيقة، و لا بدّ من إعلان براءة جميلة بوحيرد.

على صعيد آخر ، فإن الإعتداءات مستمرة في مدينة الجزائر، و المتطرفون يطالبون بالإعدامات التي لم يعد من الممكن جعلها ميدانية، كما حدث مع الإعدامات دون محاكمة في 11 جوان أو في مجزرة رويسو.

فلقد توجّب من أجل تخفيف غضبهم و"راحة ضميرهم إجراء محاكمة حقيقية بكل أصولها العلنية، لكنها الفارغة من كل معانيها، و التي تنتهي في كل الأحوال بإعدام سجين ذات صباح.

لقد أقفل التحقيق في 29 جوان، وحدّد موعد المحاكمة المتوقّع لشهر ديسمبر، في 11 جويليه وبشكل قطعي.

وأضحت جميلة بوحيرد ملاحقة بدعاوى عدّة : " اقتناء المتفجّرات، محاولة القتل، التورط بالقتل وبمحاولة القتل ،التدمير والتورط في تدمير المؤسسات بواسطة متفجّرات ، والانتماء إلى جمعية تخريبية".

إنّها هكذا تتعرض لحكم الإعدام 5 مرات. ولقد اعتقدنا عشيّة محاكمة كهذه، إمكانية الطلب أيضاً إلى زميلي وصديقي السيد / إيف آمبلار / من نقابة محاميي باريس، أن يحضر للدفاع عنها. بيد أنّكم رفضتم له مهلة 24 ساعة التي طلبها برقيّاً بكل احترام، كيما يتسنّى له الإطلاع على الملف.

لقد صرّحتم سيدي الرئيس بوجوب الانتهاء من هذه القضية بأ ي ثمن قبل 14 جويليه.

وأنتم من جهتكم لم تنهوا المهمة في المدد المحدّدة. لكن، كان للسيد إيف آمبلار ان يعتذر عن الدفاع عن جميلة بوحيرد بدافع ضميره المهني. وكان لاستعجالكم أن يحرم جميلة بوحيرد من واحد من المدافعين عنها.

إنّ أقلّ ما يمكن قوله ، هو أنّ الدفاع لا يستفيد هنا من أي مقدّمة ملائمة. لا من جهة النيابة العامة، حيث لابد أن تكونوا قدّرتم أيضاً نفاذ صبرها. و لا من جهة الجمهرة التي لم تهزّ شتائمها نحوالدفاع من هدوئكم، غير أنّ تهديداتها قد تمنع السيدة بوعزّة من تقديم الشهادة.

إنّ محاكمة حقيقة كانت تستلزم دفع القضية بسبب عدم استكمال التحقيق. فليس هناك سوى ملف الأمن. كما أنّ عناد المحققين شبه الرسميين انتهى بدوره إلى طريق مسدود . زيادة على أنّ نقيب المحامين كان قد طلب هذا الدفع منكم بعبارات حاسمة. لقد كان للحقيقة والعدالة أن تكسب لو أن الجمهرة قد فقدت بعض الرؤوس التي لا تعود لها .

لقـــد رفضتـم إعــادة القضيـــة للتحقيـــق .

إن محاكمة حقيقية تقتضي كشفاً نفسانياً معاكساً لجميلة بوعزة (الغبية ذات الوجه الجميل)[1] التي بيّنت الصحافة موقفها (مهلهلاً، جامحاً، مضحكاً يستدعي الشفقة ، فظّا و صبيانياً) . لقد توسل إليكم السيد/ طالبي / نقيب المحامين أن تدعوا الاختصاصيين " لحل لغز هذه الفتاة ذات العشرين عاماً .

فبعد مدير السجن، والطبيب، والحارسات، والمحتجزات الأخريات معها، طالب كامل الدفاع هنا كشفا عقليا جديدا لجميلة بوعزة.

أما النيابة العامة تطالب لمواجهته بحكم الإعدام ،

و هنا رفضتم الكشف النفساني المعاكس لجميلة بوعزة .

1) صحيفة " صدى الجزائر" .

فقد اعتمدتم بشكل حاسم أن جميلة بوعزة سليمة عقلياً ، أو أنها سليمة كفاية كي تحضر المرافعات ، بينما كنتم قد عزلتموها على الأقل مايكفي كي تموت ، و اعتبرتموها أصلا مذنبة قــــــبل الحـكم عليها ."[1]

وقبل أن تنزع ثيابها أمام الدرك، كان لها مع ذلك الوقت الكافي كي تؤكّد ـ و هي تلفّ حزامها حول معصمها بعصبية ـ كل شيء ضد ذاتها و خاصة ضد جميلة بوحيرد، ببعض الصياغات الصوتية التي فسّرتموها كما لو أنها اعترافات " تاك، تاك ، تاك . . . ت. أس. أف .. أس . أو . أس . "

إن محاكمة حقيقية تلزم بسحب الوثائق الصادرة عن تحقيق شبه رسمي حيث يمكن الإعتقاد أنها ملطخة بالدم . وعلى العكس، تصبح هذه الوثائق ضرورية لأنها الوحيدة المتوفرة، إذا ماتوجب الإنتهاء ـ بأي ثمن و قبل الـ 14 جويليه ـ من محاكمة جميلة بوحيرد، حيث نعرف أن الأخريات لسن سوى عناصر ثانوية.

ولقد رفضتم سحب الوثائق المستخرجة تحت التعذيب من الملف.

لقد طلبت حينها أن يضمّ إلى (ما هو خيالي) حول القنابل ملفّ آخر (أكثر واقعية مع الأسف) للتعذيب الذي خضعت له

---

1) الرئيس :" ليس لك أن تكوني فخورة ، فأنت أصلا مجرمة . كل ماتفعلينه أو تقولينه مجــــرد تصنّع " (صحيفة الجزائر) ، جورنال دالجي.

جميلة بوحيرد، كي ينير كل منهما صدقية الآخر. بيد أن السيد مفوّض الحكومة لم ير الترابط بين هذين الملفين .

فرفضتم ضم ملف التعذيب الذي تعرّضت له جميلة بوحيرد .

إن محاكمة حقيقية تقتضي الكشف الخبيرعلى التوقيع - المطعون به - لجميلة بوحيرد في أسفل النسخة الأصلية التي تمّ إبرازها بكيفية متأخرة .

توقيع مختلف تماماً - كما لا تجهلون ذلك - عن التواقيع الموجودة أسفل الوثائق الأخرى الصادرة عنها في الملف ، و في أسفل الرسائل التي كانت توجهها لي و التي أضعها تحت تصرفكم .

إن وثيقة مزيفة تقتضي بالطبع تأجيل المحاكمة و فتح أخرى أكثر رصانة .

و بتوقيفي عن الكلام في منتصف عرضي لشروحاتي، رفضتم التحقق من صحة توقيع جميلة بوحيرد عن طريق كشف خبير في الخط .

إلاّ أن أحداً لن يعرف من هو ذاك الذي وقّع اعترافاتها.

عندما " سقطت على مقعدها بان كل شيء محطما " [1]، فلقد قالت لكم جميلة بوعزة إنها منذ اليوم الثاني للمحاكمة، كانت تحقن في السجن صباح مساء و أنها لم تعد تشعر بذاتها. فقد أصبحت نفساً مدمّرة، هكذا فقد طلبنا - زملائي و أنا - بعد وزن

1) صحيفة " صدى الجزائر" إيكودالجي .

كلماتنا ومسؤولياتنا بتحليل فوري خبير لدمها ، و لقد سبق وقالت لنا الحارسات ورفيقات السجن الأخريات أنها تخضع لحقن المخدرات. إن رفض الكشف المختص هذا سيظهر بحد ذاته كاعتراف أمام الرأي العام.

لقد رفضتم ، و لن يعلم أحد يوماً من الذي حطّم كل طاقات و نوابض جميلة بوعـزة

مابين 15 جوان و 15 جويليه في الجزائر.

لقد خلص السيد جورج فرناند، ضابط الأمن القضائي في تقريره الذي وجّهه إلى رؤسائه يوم 25 أفريل أن : " ليس هناك من دليل يثبت الإتهام الموجّه ضد جميلة بو حيرد " ، و بغياب الدليل ، فإن التحقيق لم يقدّم أدنى إثبات ، بل على العكس من ذلك ، فقد بدت " اعترافات " كل من طالب و جميلة بوحيرد ، بما كانت عليه، ثمرة ذات الكابوس الذي أدى إلى نهاية ريموند بيشّار.

جميلة بوعزة دلّت على مسلك آخر.

فبرفضكم المعاينات المختصة التي طالب بها الدفاع تكونوا قد حافظتم على غياب اليقين داخل الملف.

من المحال و المرعب الذهاب للإعتقاد أن كل هذا إنما للحكم خلسة بالإعدام على جميلة بوحيرد. يكفينا إعدام ريموند بيشّار.

هكذا، لا يبقى من الإتهامات السبع ـ الموجّهـ ـ ضدها ، سوى : (جمعية المخرّبين، طالما أن هذه هي التسمية القضائية لجبهة التحرير الوطني .

هنا ، لا تنكر جميلة بوحيرد أنها كانت جزءاً منها طيلة أربعة أشهر. و تقرير الأمن الذي يعتقد بالقفل على مصير جميلة بوحيرد في سطرين، إنما يشكّل فضيحة ، كما هو حال الملف الذي يتضمنه، حيث أن جميلة بوحيرد ليست رهينة ، بل هي كائن بشري عليكم محاكمته، و بالتالي التعرف عليه قبل كل شيء، بعيدا عن ضجيج التجمهرات و حقد المعارك.

فسواء في مدرسة شارع ديفان أو مدرسة شارع روفيغو، كانت جميلة بوحيرد تتلقى كل الأخبار الصحيحة ـ أو الكاذبة ـ و كل الإشاعات المأساوية دائماً ، كما كانت تعاني من هموم شعبها. هكذا فقد التحقت بالجبهة في الشتاء المنصرم .

لقد كان أن غادرت في ذات الساعة ، ثلاث فتيات من تجهيز باستور و مستشفى مايو، و ذهبن كممرضات إلى الجبال. و لقد حكمت محكمتكم عليهن بالسجن مدة خمس سنوات . هوذا جيل جميلة بوحيرد .

لكم أن تسمعوا دوافع هذه الفتيات :

" قالت الأولى :

عليكم أصلاً ألاّ تطرحوا أي سؤال علي. هل يمكن أن تسأل جزائرية لماذا هي تقوم بواجبها ؟، فجريمتي الوحيدة أنني أسعفت، كممرضة، مجاهدين جرحى، هؤلاء ليسوا بمخربين على أي حال، بل رجال تحكمون عليهم سلباً لأنكم لا تعرفونهم جيداً، رجال حملوا السلاح لأنهم خدعوا لزمن طويل، رجال فخورون، يمكنكم إن شئتم أن تقيموا معهم صداقة جزائرية ـ فرنسية حقّة. "

و صرّحت الثانية :

" لقد قررت بملء إرادتي الإلتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني لأنه لم يعد بمقدوري أن أستمر بالعيش في الإزدراء والخجل . . . لقد عالجت الوطنيين الجرحى وسكان الجبال القابعين في البؤس و المجاعة، وأسعفت ضحايا التمشيط والقنابل والحرائق.

لقد قمت بكل بساطة بواجبي كجزائرية اخترت طريقي بكل حرّية .

" لم أعمل ضد فرنسا ".

و تسمعوا الآن صوت جميلة بوحيرد :

" لم تفعلوا شيئا ضد / ميشال فيشوز / الذي كان يتباهى العام الماضي، بقتله خمسين مسلماً في القصبة بتفجير قنبلة . واليوم طالما أنكم لم تضعوا اليد على المسؤولين عن اعتداءات حصلت، تجدون أنه لابد من التضحية بجزائري، وليس مهماً من يكون. إنّ صدفة التقاطع مع جنودكم أوقعتني كضحية .

مع ذلك، فإذا كنت مناهضة للإستدمار، فإني لست ضد فرنسا".

في الثاني و العشرين من عمرها، استغنت جميلة بوحيرد عن كل شيء" لتبقى وفية لتقالــــــــيد عبد القادر . "

و هي ليست تقاليد معاداة فرنسا أصلاً" .

يعود لكم أن تحسبوا ، بملء ضميركم ، عدد سنوات السجن التي يستحقها هكذا اختيار .

الجزائر : 14 - 15 جويليه 1957

عنـدما قـرأوا عليهـا الحكـم بالإعـدام ، انفجـرت جميلـة بوحيـرد ضاحكـة

" لا تضحكـــي، صـــرخ بها رئيس المحكمـة ، إنّ الأمـر لخطيـر.. "

أغـــاني «لجميـــــلة»

في كل ليل، ترسو السفن الكبرى ،
جثث الأيام .. وصناديق مثقلة بالآلام
ثمرات عهد باريس الاستدماري
قد صار لزاماً أن نستهلك منها ..

بدءاً من هذي (القصبة).. حيث لم تلمسها بعد قدماكِ العاريتان
حتى ضفاف الأطلس
تتوالى وحدات الحاكم بلباس أبيض
تتبختر دون حساب خطاها .. وعلى أنغام عويل
تحت أضواء منارات .. لايعنيها ما تشهد منذ زمن لا يحصى
باردة كصقيع الليل
ثم تصطفّ على نسق كيما تغتال الأمل
تصرخ أيديهم بالجرم
تنتظر عيونهمُ مرشّ الدم
وتقول شفاههمُ : اقتل
حتى أنّ القمر في رحلة حبّ وعطاء
يفقأ كل عين عنده كي لا يشهد حمّامات الإثم
والبحر المتكهرب من غيظ يتلوّى حتى أطراف النجم
في هذا الوقت، حيث يجتمع المصلوبون

تجد الوزراء غرقى في أحلام لايقلقها شيء
بل تتغذى من شَرَهِ السفّاحين
فلتحمل سكينك يا ذاك الطفل
ولتقطع أبداً أبداً عتمات الليل
عتمات ظلم الجلاّدين

هي ذي الشمس تحرق وجنات التفاح القرفي فوق غبارالشجرات
(أقدام «مادورا» المرضى) تزرع آثارها من لون الحزن في كل الطرقات
الأحمق والمقعد، يصرخ كل منهم في السور المهجور
الطفل يضرب كلبه حيث يموت النور
والموت يطفو فوق الريح مثل أفعى،
تقترب من شرفات يغمرها القمر
تمضي نحو الباب زاحفة
ثم تجري في كلّ ممرات الدار
تطبع مختلف الجدران بخاتمها .. وتدور
وعيون منسيّة
تتفتح في عمق الزنزانات الطنّانة
وهناك في عمق الشارع تمتزج بصراخ الأبواق قهقهة المنتصرين
بيد أنّ الموت يقرفص في الحصن، ويشرب من صنبور ماء الغاز
ومن أحشاء المظلومين..

هي ذي ورشات حرق الأيام وسجون تختص بتصنيع الليل
واستخراج حبال الدمع من الأجساد
ومعامل إفساد الريح
أنتم تهوون صراخ الأطفال .. وشكاوى مجانين ..
مثل ما تهوون ضحك المحتضرين
محاشر قتل الزمن.. وَفَبارِكَ تصنيع النسيان
هي ذي الجذماء تدور فوق أصابع مرتعشة
وعلى إيقاع غناء الجند في عمق المرفأ
أرتال عبيد يضعون فوق طاولة النخل الهندي
شراب (الروم) الأسود، تسكبه جراح
ثم يأتون لحصاد المرجان بقذائف من حمم البركان
ولنشر الكلس فوق وردات وجهك
الحال هادئ قرب قصر (برج النور)
والسفن المتخمة أسلحة تنسلّ بعميق الصمت
فوق رمال تنفتح حشرجة كالثور

هوذا الشحّاذ يمدّد فوق قارعة الدرب
معطفه من جلد ضباب
يعطي للأطفال أرغفة الخبز .. وبقايا فرحه

مابال الجندي يستقوي عليه بسوطه

حيث يطفئ عينيه الشحّاذ .. ويطوي ذراعيه

هوذا القمر يطلّ من النافذة .. ليرى تعذيب النسوة في الأكواخ القذرة

وعيون الأطفال الجلح تغادرهم ما بين جدران المهن المندثرة

في ساح السجن يتعجّل أفراد الشرطة.. لتأمّل تنكيل (جنس) المسجون

وعلى صحن مدينتهم ، يشرف ذاك القصر الأبيض لمدير أبيض

لمصحّات جذام بيضاء

هوذا نور الكوّة يحفر في رونق تلك (القرطنسية)

حيث يسكب فيها نهار محموم قارورته من الإيتير

وعلى قطن البحر يغفو الزمن مثل فاكهة منغلقة

هوذا رأسي بين أيديك من شعره، تلقين به في عمق المنقع

وحدود الحقل تشتعل عند الصبح بلون بنفسج

أنت وظلّك تجرين تحت شجر (الفيلاو)

حيث السرفات تضطر لحرف قدّاس طوافها

ما بين رتل مناقع ملحيّة

وحيث الريح تصارع من أجل حريتها الأبدية

والآن ، حين تعلّق هذي الشمس حلّتها

فوق شجر جوز الهند

تبسط أيديك طريّ الغيم فوق مائدة اليوم

وتصبّ لذيذ حليب في قصعات مازالت تحمل آثار ترابهما

مرحاك تجوبين فوق جسدي ، مثل الأفعى

كيما تجنين رأسي المسكين

وتصغين لسادّات دمي الأزرق في الصدغين

ثدياك المنتصبان تحت ضفائرك مثل أهرام مطمورة

ولهيب بجرتك يترامى فوق محيط ،غطّته السفن المسحورة

ونداء مهووس يعبث في غابة بطن مكتظّة

ويسوح خفيفاً فوق أجنحة النورس ..

حين ينبجس الفجر ما بين جنبيّ

يبقى تجديف جنبيك عليّ

وعلى ظهر صداقتنا ، ما انفكّت تنبت أجنحة العشق المجنونة :

نيران عفريتيه..

طوفان ذكرى ورديه

جمز غزالات بريّة

هذي سيارات الأدغال تتبرّم من رجّاتها كالزلزال

بينما ترمي الأشجار أحجاراً من قمر نحو العلياء
والليل يبحث عن أحياء
سوف ينكسر الباب غداً .. ويجرّ الدرك آخر صبح في العالم
ولسوف يخفق فوق زجاج نافذتي، بحر قبلتك اللامحدود
ويلامس ثدياك كفّ يدي مثل خفاج أخرس
قلبك ينبض في الهضبة
والفجر يصيد في عينيك أسماك (العنب الهندي)
مجذاعي يهتزّ فوق أرصفتك
و أغوص في كلّ لجاتك ثم أخرج منها يلبسني الطمي
حين تمتدّ خطوم الحيوانات جليداً نحو أيادي الريح
تعوم ذراعاك نحوي .. للقائي
ثم يباعد بين تعريشهما،
سعالك هذا، المزهر كالدوح
يكسر بلور عينيك .. ويروح
فتشدّين برقيق ذراعك حول عنق الأحلام الممتد
تنبصق رئتاك فوق طراوة ظلّ المنفا
وأنا أبتلع آخر نجم في قعر قهوتنا المرّة ، مثل الجذوة
ويزمجر فوق رحاب القصبات إعصار الحقد
رؤوساء الديوان يجوبون قاعات المحكمة المهجورة

حيث يغطّي مجالسها ثوب غبار يزحف نحو ثغر البارودة
والموت يلقي بورود بيضاء على مرآة الجدران المقهورة
وأيادي قضاة المحكمة بجانبهم ، مثل مطارق من فولاذ
بيد أنّ زاحف كلّ منهم يتدلّى بين جنبيه
والقلق المسعور يغشّي دمه في عينيه

قد وضع كل منهم مسماراً في قلبه
وإذا ما شمّر عن شفتيه ، تبرز أرصفة نحاس
كم هم يهوون أحلامهم المكتظة بالفئران
وهي تعجّ بالرمل
كم يسعون لحشر قطع الليل في فمك
والبطن من سيل الوحل
وبقهقهة حيوان مسعور، يحنون على مزق ضفائر عيشتنا
ليثيروا فيك عذاباتك
وتثير عيونهمُ في عينيك الذعر
بيد أنّه في بلور فمك وكريستال البطن تندحر مناطيق القتلة
من قوة إيمانك..
من جانبنا ،
نحن وقعنا في الفخ

فأنا أتسلق سلّم أضلاعك مذهولاً
حيث يلسعني كالأفعى، لسانك

أقرأ فوق خاصرتيك روزناما الأيام العابرة في عمق الماء
حيث يتسلّى الأطفال السود ببيض النورس
والصيف المأسور يدور في فلك سماء فارغة
وعذاب الحيوانات يلطّخه بدماء
لم يبق هناك من يحصي جراح الإنسان فوق أرض لا حدّ لها
ولهيب الذنب يلقي قدامنا ناراً ثابتة
وأنا ألقي بجبيني فوق خافقك الأخينوسي
وأحمّل فوق ظهري عبء مديد عذاباتك
أنت ترمين بسبائخ ثلجك وفق إيقاع عدو الأيل المذعور
فوق تعريش الدالية ..
وحياة تعدو لطفولتها
زمن القلق
وسجين يشعل دمعاته
أقوال كل نهار تمضي لتحشرج في مغسلة الليل
رجل البلور يسقط فوق أيديه فينكسر
ونسور تسبح حتى أعماق القلب كي تنتزع أصداءك من أحلامي

كلّ ما صعد، كالزبد فوق شفتيك، لعابك
تصطاد شباكي – من عمق حلقك – أسماك النوم
كل ما فلّيت ليلك
يبوح دمك بطعم الصمغ ورائحة الطحلب
وتغور حدقاتك في عمق جفنيك

تنتزع أيديك ثياب القلق عنّي
وأنا كالخيل الثمل بين إبطيك
أمضي كالطفح البركاني في كل شعابك
ما بين أزهار الشغف الدامي
بيد أنّه حين ينطلق فتيل سعالك
تضعين فوق الحلق المثقوب منديل دمك
فاليوم اليوم تورق أزهار السفّاحين

قد زرع البؤس سكّينا تحت كل أظافرك
فليرحمْ أطفال الشاطئ قدر هذي السمكة ،
وهي ملقاة فوق صفيح الرمل
وكذلك أذرعة اخطبوط محترقة..
وهي تخبط أمواج الريح

ليس لأيّ كان أن يمشي فوق أصابعك
وعلى الحبّ،
وضعت تلك الشمس أزهارها من قطران
هوذا رأسي يغوص حيث يبلل مشفره شعرك
و خمول غامضْ، يغمر أطرافي كالسيل
تنكسر الزهرية بين أيادي اليوم
والناس تلصق إعلاناتها فوق الجدران
تنثر فوق الساحات دمعات اسمك بيضاء مثل حبّات البَرِد
ويداك تكورتا مثل زهر معابد صينيه
أثناء طقوس المحرق
ورسائل شعرك لم تتوقف طول الليل
حتى حين لفّ العهد سوط أفعاه حول عنقك
فتقدمتِ نحو الموت بجلال
أشبه بالمركب حين يقترب من شاطىء تخت الزفّة

في العام الماضي كانت أيدينا تلامس بطن سماء علوية
و كان حصان شعرك يحمل ليله نحو الأفق
حيث كان صوتي يرتجف
عند الغسق هذا اليوم، توقّف نمر بين القصبات

عينان تفتّحتا ناراً مثل فوّهتي البركان
عند قدم الجدران المرصوفة باللبنات
وعلى الساحات المهجورة
تسكب صابيّات كأس (الروم) فوق جمرات نهار
وتهزّ أبواب السرخس
تمضي لتنفخ في أشرعة عبيد شرّد
فغداً سوف تنسكب نجوم العلياء في عنقك
وهو مقطوع الشريان
وتُنطِنُ ذكراك في الليل، فوق رصاص أجنحتك
يضع البحر أيديه المرجانية فوق أرض غافية
أنت تبقين تعيشي في عنف الريح
وحماس النحل .. وسكوت حجر البلق
تنسج في بعض زاويا بقايا القرية حُقّاً ،
عناكبُها الزرقاء
حيث تنشبك فيه عصافير الحلم
وأزاهير الحمى في ابنوس الدم
لن يفتح يوماً أحدُ هذا الباب،
هوذا قلبي المنقبض يسيل مثل حجر في عينيك التائهتين

حين تلتفّ الطرق الداكنة حول بساتين يتملّكها الخوف
تمضي النسمات بعيداً تحمل من طيب نفحتك
حتى أعماق البركات،
حيث يتلوّى الجرّي تحت غطاء من طحلب
حتى أعماق البحر حيث يخفي الغرقى في قلبهُم الخنجر
حتى ميلان الصخر حيث الريح توسّع أعين طير الفايتون
حتى أحشاء تلك البلدات المتكورة من ضجر، يبعث أنّات الأزواج
يوقظ أجفان الأطفال
حتى ميتة ، مازال نَفَسُ رئتيك ، مثل إرب لحم السلحفاة
فلتضعي مثل عادتك يدك فوق كتفي
هذي العلياء تضع بارودتها جنباً
تسقي الهضبات حليب الفولاذ
ويداك في ذاكرتي تنتصب كقوام السرّو في الأدغال
نحن وحيدان للأبد فوق الشاطىء
حيث الريح تكشط عنه مراسي الفولاذ
ومخابىء ذاك المرفأ، تمعن في تقطيع سماوات
تتسيج من خشبات الاعدام
أنت ميّتة منذ عشرة آلاف عام
بيد أنّك مثل أشجار القرمز

تنبعثين عند مساء اليوم
تحت الأرض تختبأ تلك الهضبات هرباً ، مثل أحصنة متحجّرة
وتصير الخيل ذئاب رمال
وعناكيب رماديّه
تنسج مشبكها الناعم فوق عينيك
فعساها تحميك، تحنو عليك

لا بأس.. لا بأس ،
ها أنت جالسة فوق بلاط الشرف
وسواده أبلغ من غاب عدالتهم..
لا بأس،
وأنا أتعجّل عبر كل الطرقات خطاي،
فانتظري
ها أنت ممددة فوق الأحجار ، تحت شمس ساطعة
حُبلى بالبأس
" في مربّع المعذبين "
تستندين على جذع النخله
حُبلى بالبأس
حيث ترتعد فيها الأطراف

وإلى ريح البحر الهائج من غيظ
" في مربع المعذبين "
تتحرك من وقع حضورك
أختامٌ، ألواحٌ ومطارقْ
" في عنبر المعذبين "
ويسيل نهر الحبِّ فوق صقيع بلاط الغرف
وهو يرفض أيةَ هدنةْ
تتبخّر بحرات الأحلام من حولك
ويغطّي ضباب الحزن والفرح مدينتك
حيث تئنّ تحت ثقل جسدك
حتى من دون رأسك ..
حتى من دون رأس ..

المرافعة الممنوعة

باريس : أول أوكتوبر 1960

جميعنا يعرف أن كل محاكمة تنتهي بحكم . السؤال الوحيد يتحقق بمعرفة من يحاكم و من يحكم عليه . / جان كلود بوبير / و/ آليان حميمي/ يسخران من قرارات العدالة : فشرفهم هو قضية الرأي العام و حريتهم هي مسألة جهاز الأمن. قبل عام ونصف، تمّ تقديم وطنيين جزائريين أمام المحكمة الدائمة للقوات المسلحة في مدينة الجزائر : عمر أوزقان وعيسات إيدير، ولقد برّئت ساحة عيسات إيدير، بيد أن المظليين اقتادوه عند خروجه من السجن إلى مركز(للفرز)، لم يغادره إلاّ ليموت في مستشفى مايو العسكري محترقاً ، أما عمر أوزقان فقد نال (حظ) الحكم بالسجن لعشر سنوات . و هو مازال حيّا.

هكذا هي الحال. عندما يهيمن الأمن لا يبقى من مكان للعدالة . و هنا لا أودّ الإساءة إلى أحد ، بل إني ألاحظ. كما أننا بالتأكيد بعيدون عن العدالة المطلقة، وبعيدون أيضاً عن تلك القضية، حين كان يحلم (الإتهام) : قبل دورة الأمم المتحدة بالضبط و قبل قضية " لاغيّارد "، بقضية الخونة الفرنسيين الذين اختلطوا مع قتلة جبهة التحرير الوطني. صورة جميلة لـ/ إبينال / على لوحات وألوان البذات و السترات : كاكية أو كحلية، حمراء و سوداء، أو تلك التي للقديس جرجس و هو يطرح أرضاً تنين الخيانة. . .

لم يبق من الأمر شيء يذكر. فالحقيقة أيضاً تخون أحلام الأمير.

و هي كذلك " فلاغة ". أما القضاة، فليسوا وحدهم المخذولين. إذ هناك نوّاب الأمة (للمديّة) و مستشاري (ن. ن .ر.) لباريس، و صحف (الفيغارو - والريفارول - و لورور)، حيث يعتقدون أن هذه المحكمة كانت " مهزلة و كرنفالاً وسوقاً وغوغاء " و كانت فريدة، غريبة، محيّرة وفاضحة، صحيفة ريفارول وصفتها أيضاً بمسرح العرائس، دون أن يعترض مفوّض الحكومة. بيد أنّ أيّاً من رجالات المراقبة و المنع لم يكن ليضحك في هذه الكوميديا ، بل بمقدار ماكان الصراخ يتعالى حول سخرية هذه المحاكمة بمقدار ماكانوا يظهرون جدّيتهم ، حيث كانوا يدركون أن هذه السخرية إنما هي موجهة لهم ، و أنّ هذه المحاكمة ليست سوى انعكاس لعجز النظام .

حين يخطر شاهد بأنه سيدلي بكامل الحقيقة - وفاء للقسم الذي أدّاه - فإن رئيس المحكمة ينذره ضد هكذا محاولة :" انتبه للحقيقة " يقول له ، حيث يعلم أنها قابلة للإنفجار ، و بالتالي فهو ينصح الشاهد بأن يتعامل معها بكثير من الحيطة كما هو الحال مع مادة متفجّرة. من جانبنا نحن ، المتهمين و الشهود والدفاع، كنا نعلم ذلك، لذا فإننا لم نتوقف عن هزّها إلى أن تنفجر.

و هو ماكان، خلال المرحلة الثانية من المحاكمة .

فلقد كانت المرحلة الأولى مخصّصة للبحث عنها عبر ظلامية الإجراءات، و صخب الإحتكاكات حتى توصّلنا لها بعد عشرة أيام :

فلقد تمتّع الشهود، و على رأسهم / جان بول سارتر/ بحرية التعبير طيلة يومين. هكذا تمّ التمهيد للمرحلة الثالثة من القضية ، التي تميّزت بطرح السؤال علانية و شعبياً : فلطالما كانت الحقيقة هكذا، كيف يتحدد الواجب تجاه حرب الجزائر؟ هذا السؤال الذي كان يجب تجنبه، ها قد أصبح الآن مطروحا وهو ما يمثّل انتصارا للدفاع، حيث يكفي قراءة (الجريدة الرسمية) لمعرفة أن المرارة والبلبلة أضحت في وسط شركاء السلطة و ليس في طرف المتهمين.

فالمحاكمة السياسية تفترض طرد الحقيقة مسبقاً من قاعة المحكمة . إذ كيف يمكن الحكم في الواقع إذا ماقبلنا مع السيد / دو- لا - باليس /، أن الجزائريين هم جزائريون، و مع السيد / ميشلي / أنّ حرب الجزائر هي أيضاً حرب أهلية بين فرنسيين ؟ في هكذا حال تكون المحاكمة مستحيلة. فالجزائريون يصبحون أسرى حرب والفرنسيون يتوقفون عن أن يعتبروا خونة ليصبحوا مجرد خصوم. إنّ رفض الحقيقة السياسية هذا، هو مايلزم الدفاع لخوض المعركة الإجرائية. وهذه هي العملية الغريبة لتوليد الحقيقة و التي يجب تشغيلها كيما يبدو الوضع اللاعقلاني ، أمام الجميع، كلاعقلانية قضائية.

"هل يمكن اتهام الجزائريين بالمساس بأمن الدولة، بينما يتقبل رئيس الدولة إمكانية أن يختاروا الإستقلال ؛ " هذا هو السؤال - الفضيحة - الأول الذي طرحه الدفاع ، لقد أصبح الجميع مسلّماً بوجود هذا التناقض .

السيد / سوستيل / يتقبّل في (كارفور) أن " لهذه الحجة وزنها" ، و السيد /غابرييل مارسيل / يعترف بأن " كل المحاكمات السفسطائية التي يأمل البعض معها الخروج من هذه الإشكالية ذات الحذين ، لن تقنع أحداً ".

لقد تبنت العدالة العسكرية رأي الجنرال / صالان / القائل بأنه : " ليس من سلطة أحد - بمن فيهم الجنرال ديغول - أن يقرر التنازل عن قطعة من الأراضي التي تمارس عليها السيادة الفرنسية ، وبشكل خاص الجزائر " الأمر الذي يجعل هذه العدالة ، مع ذلك ، غير قادرة على الفرار من تناقضها ، طالما لم تقم بمتابعة رئيس الدولة ذاته، بتهمة المساس بأمن الدولة.

المحكمة لم تعد تأخذ بعين الإعتبار شهادات الوزراء أكثر مما هي الحال مع تصريحات رئيسهم الجنرال ديغول ، فهي تعذرهم بحكم وظيفتهم ، و هم لم يعودوا يحتجّون، كما أنهم يدركون أن التصريحات و الإتصالات التي كانوا يمارسونها كمواطنين عاديين أصبحت " تمسّ بالنظام العام ". فقبل ثلاث سنوات كان السناتور/ إدمون ميشلي / يؤكّد أن هناك حرباً في الجزائر، و أن هؤلاء الذين يساعدون جبهة التحرير الوطني إنما اتخذوا موقفاً " يستلزم الكثير من الشجاعة والبطولة ". بينما نجد الوزير إدمون ميشلي اليوم مكلفاً بنظام الإصلاح للبطل /جان كلود بوبير/ .

لقد دعي أيضاً السيد / أندريه مالرو/ للشهادة ، إلاّ أنه اعتذر و كتب أنه لايعرف أحداً من المتهمين . و هذا غير صحيح ، فقد كان يعرف / جانسون / . ثم اعترف بذلك ، لكنّه يقسم أنه لم يعد يراه . لقد كان بإمكاننا أن نستفسر السيد أندريه مالرو، لو كان

أقلّ حذراً ، عن زيارة ذات مساء ، نقلها / سيرج ميشال / إلى / مارك بيغبدير/، حيث حضر زوّار ثلاثة عند أندريه مالرو وذكّروه ـ بقساوة ـ بماضيه الذي نعدّه ثورياً :

" لقد ناضلت في الصين ضد تشانغ كاي شيك ـ حسبما قالوا له ـ و في اسبانيا ضد فرانكو و في فرنسا ضد فيشي، فلتكن وفيّا لذاتك و لمشروعك ، تعال و ناضل في الجزائر " . حينها طلب أندريه مالرو مهلة للتفكير . و هو ما فعله لليلة كاملة ، حيث أجاب زوّاره في الغد : " إنه بالضبط ما عليّ أن أفعله . وكنت سأذهب معكم إلى الجبال ، فقط ، لو كنت أكثر فتوة بقليل."

لقد رفضوا لنا أيضاً سماع / أنطوان أرغو/، العقيد الذي سمّي بطريقة غريبة " بالعقل الخلفي " للجنرال / ماسو /، حيث كان الدفاع الذي يمتلك بين أيديه الوثائق السرية، يريد منه أن يؤكدّ التعذيب و الإعدامات الكيفية ، قبل أن يطلب توقيفة في الجلسة، بتهمة " جرائم حرب ". لقد قدّر أن سماعه أمر مستحيل من " أجل شرف الجيش ". ومن " أجل شرف الجيش " رضيت المحكمة العسكرية بذلك.

لم يعجب البعض بحثنا هذا عن الحقيقة بالوسائل البسيطة المتاحة ، أي الوسائل القضائية. فقد عبّر عن سخطه كل من السادة : / راوول صالان / جنرال احتياط، و/ كريبان / جنرال عامل، و / جاك سوستيل/ وزير احتياط، و/ لويس تيرنوار/ وزير حالي. والإدارة الإصلاحية من جانبها، كانت تسمح من وقت لآخر لمجموعة من المواطنين، تصرخ قليلاً، أن تضع أزهاراً عند

حائط سور المحكمة قبل تهديد الجمهور. بل و لمراقبة أفضل للمحاكمة ، فإن ممثلاً لوزير الداخلية يجلس بالوقت ذاته بين القضاة، بينما يجلس مندوب الوزير الأول بين الحرس لرؤية أفضل لأداء المحكمة ، و أخيرا فإن السيد / سيدوس / المحكوم باعتداءات سابقة، يقوم بدعوة القضاة ذاتهم إلى تناول مشروب" البيرة ".

معارضة اليسار ليس لها ذات البدلة القميئة . إنها و منذ زمن بعيد يسار حكم، فقد ترك ممارسة المغطس والكهرباء للآخرين، و لم يعد يناضل إلاّ برأس النعامة و القفازات البيضاء.

و لقد كان ـ هذا اليسار ـ يتمنى على (الدفاع) أن يجيب في مرافعاته بحجج نفسية على الأسئلة التي تطرها الثورة الجزائرية، مثل العصيان و مساعدة جبهة التحرير الوطني. و بما أن فكرة (الخيانة) ليست محتملة لديه . كان علينا أن نفتّش عن تفسير خاص لهذه (الخيانة) يكون أقل خطورة من التفسير السياسي . و مع تجاوز اختيار المتهمين الذي يمكن له أن يصبح نموذجياً. يتوجب الإلحاح على حياتهم الخاصة كما في جريمة عاطفية، و شجب ماضيهم لتغطية أفضل لمعتقداتهم السياسية التي كانت تخيف النظام .

هكذا فإن الجدالات حول الإجراءات كانت تؤدّي إلى فقدانهم الصبر، لأنها كانت تؤخّر الإستنطاق المعمّق، و هذا الإستنطاق بدوره كان مخيباً لآمالهم ، لأنّ إجابات المتهمين كانت سياسية بامتياز .

في الحقيقة، وعلى عكس مايعتقده البعض، من الذين يجهلون الدفاع السياسي، فإنّه لم يحصل هناك أبدا جدالات محض شكلية أو جدالات لا تتعلق بالجوهر. فحينما طالب (آليان حميمي) حضور مترجم عربية فصحى، إنما كان يقدّم البرهان، و هو يضحك، على أنه منذ اللحظة التي لانعرف أية لغة بالضبط يتكلم فرنسي مسلم، فإنه البرهان الكبير على أن هذا المسلم ليس بفرنسي قحّ.

وحين كان يعلن / بوبير/ أنّ طيّاراً كان من بين قضاته، إنما كان يقدم أيضا البرهان، و هو يضحك، و يربك المحكمة خلال (25) يوماً، على أن المخالفة المنسوبة إليه ليس لها سوى رابط ضعيف مع العدالة العسكرية. بل و زيادة على ذلك، كانت مناسبة للتذكير مرة أخرى بدور الطيران في الجزائر، و الذي كشف عنه كل من الرائد كلوسترمان / والعقيد / جول روا /.

إذاً، لقد لعب الدفاع خلال هذه الجدالات الإجرائية دور" المؤلد" : غير أن الوليد مسخ و لسنا الآباء.

" إن هذه المحاكمة المخيّبة تثبت أنه لايمكن الإلتزام بالقانون حرفياً كلما تعلّق الأمر بجريمة سياسية، و إلاّ فإننا نصل إلى وضعية مستحيلة"، هذا ماكان قد لاحظه / غورينغ / بسوداوية، عشية محاكمة / حريق رايشستاغ /. و قضية جانسون تقود اليوم إلى الخلاصات ذاتها. إن ما أدركه غورينغ فيما بعد، هو إمكانية تغيير القانون و توجيه الأمر بمحاكمة مغلقة مع توقيف المحامين.

إن الدفاع، بركوبه حصان الإجراءات إنما جعل المحاكمة إذاً مستحيلة، إذا مااستمروا باستبعاد شهوده . فالمحكمة أرادت - بعد عشرة أيام - سماعهم، ونسيت أن حضورهم كان قد اعتبر مهيناً من طرف مفوّض الحكومة، بل لقد أعطي لهذا الدفاع حق قول كل مايريدون حول حرب الجزائر و العصيان و إسناد جبهة التحرير الوطني. هكذا بزغ القصور الأولي للمحاكمة التي حصرت في ثوب جنائي ضيّق.

"أنت خائن ؟ كيف يمكن لنا أن نكون خونة ؟ لابد أنكم تعذّبتم كثيراً ؟ أنت يهودي دون شك ؟ أبوك شيوعي ؟ أنت تحب جزائرياً؟ لقد تسلمت مالاً ؟ هذا هو الإطار الذي تطايرت شظاياه .

لا بد أن مفوّض الحكومة اشتغل في التاريخ و السياسة . لكن تجربته هذه تبدو حزينة. فبخصوص التاريخ الذي يدّعيه بكثير من المخاطرة ، كتب / السيد شارل أندريه جوليان / : "أنه مازال في مرحلة شروحات (المرافعين عن الترميم) حول الإستيلاء على الجزائر، و هو مايرفضه كل المؤرّخين الجديين . كما أنه يطوي الوقائع و النصوص لخدمة أفكاره المسبقة ."

أما بخصوص السياسة، فإن شروحاته هي أكثر شدّا للإنتباه : ففي مواجهة جيش التحرير الوطني - حسبه - فإن الجيش الفرنسي يوفّر للسكان، ملجأ معسكرات الإعتقال . . .

وأمام هذه الرؤية المستندة إلى المفارقات التاريخية، فقد سمحت المحاكمة بطرح حقيقة أخرى، و هي أن حرب الجزائر لم تعد قضية الجزائريين لوحدهم ، بل قضية عموم إفريقيا. إنه واقع الحال الذي أكّدته الرسالة التي وجّهتها إلى المحكمة

(اللجنة التنفيذية لفيدرالية طلبة أفريقيا السوداء في فرنسا) على إثر اجتماع رؤسائها في جلسة مخصصة إلى (قضية شبكة جانسون) و هي تمثل كل من طلبة (جمهورية أفريقيا الوسطى - الغابون - الكونغو - تشاد - النيجر - داهومي - فولتا العليا - ساحل العاج - الطوغو - الكاميرون - موريتانيا - السنغال - مالي - كينيا) و قد طلبت منا هذه اللجنة أن ننشر موقفها هذا كي " يعلم الشعب الفرنسي أن شباب أفريقيا لن يتوقفوا حتى الإنتصار النهائي للشعب الجزائري ".

هكذا وحسب ماقاله صديقي (أو صدّيق)، فإن الجزائر تمثّل بنك الدم لكل أفريقيا، فبسببها انهارت (المجموعة " الفرنسية ")، وانبثقت جمهوريات جديدة مع الإستقلال، و هو مالا يجهله أحد من تاناناريف إلى داكار.

لقد بيّن السيد بول تيتجان حين كسر الصمت ذا الثلاثة أعوام، بمناسبة هذه المحاكمة، كيف أجاب مسؤولو (التهدئة) بـ " التستر واللامسؤولية اللذين لابدّ أن يقودا إلى جرائم حرب" و"بالإستنطاقات المخزية "و"بالإعتداءات ومختلف أشكال التعذيب " الشبيهة بتلك التي مارستها جماعات الغستابو في مدينة نانسي قبل (17) عاماً . لقد أقسم أن عدداً من الجزائريين مات تحت التعذيب في الجزائر، كما كتب أن المسألة ليست من فعل هذا أو ذاك من المسؤولين المعروفين المعنيين بالإستنطاق، بل من فعل وحدات عسكرية كاملة، و أنّ المشتبه بهم لم يعودوا ليحتجزوا في مراكز العدالة أو الجيش، بل و ليس في أماكن تعلم الإدارة بوجودها ، بل في أي مكان أو كل مكان، في حين لم

يتخذ مفوّض الحكومـة أي إجراء لمتابعة السيد/ تيتجان/ لأنه يعلم أن ماقاله حقيقة .

منذ عام ، كنا قد فضحنا في (الدفاتر الخضراء) ثلاث مذابح جماعية في الجزائر العاصمة و قسنطينة و سطيف . حيث مازالت الجثامين " طرية " و لقد أرسلت هذه (الدفاتر) إلى كل من رئيس الدولة و رئيس (لجنة الحماية) و حافظ الأختام، دون أن يجيب أي منهم سوى رئيس (لجنة الحماية) حيث أعلن عن عجزه.

لقد كانت هذه المحاكمة الفرصة الأولى التي لم يعد الشجب معها يتعلق بحالات فردية مثل حالات : جميلة - علاّك - أودان - بومعزة - خبايلي - فرنسيس، لتصبح شجباً قاطعاً لنظام ، نظام لم يتوقف (عن ممارساته) على عكس تأكيدات السيد (مالرو) الذي كان أقل مجاملة فيما مضى .

كم هو غريب هذا التكوين العالي المعد للمراهقين، تكوين سخرة الحطب أو النواقل الكهربائية. إن حاجة حقيقية تفرض نفسها لدراسة طبية حول النتائج المعنوية (للتهدئة)، فإذا ماثارت الشبيبة في المقدّمة و قبل غيرها، فلأنّه لم يعد أمامها من خيار آخر.

ها هو اليسار يوافق بخصوص الجزائر على ماكان يرفضه حتى الآن : إرسال فيلق الشباب. و ها هو جان كلود بوبير يتذكر أيام 1955 ـ 1956 مع الصورالقريبة لمناهضة حرب فيتنام، حين كانت الشبيبة بكتلتها الهامة تقاوم انطلاق القطارات من باريس وغرونوبل وفاندوم، دون أن تلقى الدعم الذي كانت تأمله، فرحلت و هي في حالة انكسار. لقد عاد بوبير، جندياً

مهيض الجناح. وخلاصة تجربته تتجلى بواجب رفض (الذهاب)، حيث أنهم جميعهم متورطون و مشاركون في مآساة الجزائر. فالوزير يغطي، و القضاة يصمتون، و الجنرا ل يأمر والعريف يقتل. شهادته هذه هي التي دفعت " مييه " إلى رفض الخدمة (العسكرية).

قبل ستة أشهر، وحين اعتقالهم ، انكبّ اليسار بكامله على " رافضي الخدمة "، مديناً لموقفهم كسلوك خيانة ، أو على الأقل كشهادات يأس فردي دون بعد سياسي، أما اليوم، و بفضل هذه المحاكمة، فقد استطاعوا أن يطرحوا مسألة العصيان بأبعادها السياسية كشكل من أشكال النضال ضد حرب الجزائر أو صعود الفاشية في فرنسا . و بالتأكيد فإن كل من " بوبير و مييه " لا يدّعيان أنه الشكل الوحيد المتوفّر بين أيدي الشباب، إنما يؤكّدون فقط أنه الحل الوحيد الممكن أمام سلبية اليسار.

إن تجربة بوبير تبيّن أن شعار لينين " الذهاب إلى كل معركة " لا معنى له إلاّ إ ذا قصد متابعة النضال. و تجربته هذه تثبت أيضاً أن هذا النضال ليس ممكناً إلاّ إذا تحملت أحزاب اليسار كل المخاطر ، بقيادة حملة دعائية و تنشيط منهجي، حسب وصية لينين ، وسط الوحدات العسكرية ، و بإنهاض مجموعات خاصة و ربط نشاط هذه المجموعات بحركة التمرد الواسعة للجماهير.

أي رجل سياسي يستطيع أن يؤكّد - و هو ينظر إلى وجه (بوبير و مييه) - أن ذلك قد تمّ بالفعل أو قد شرع به ؛ ذلك أنّ حال اليسار كحال السيد تيتجان ، فهو يشهد و لايذهب إلى نهاية رؤيته، (فالتهدئه) لا يمكن أن تنسجم مع احترام الشخص

البشري و مع الديمقراطية . و عندما اختار / لا كوست و ماكس لوجون و بورجيس مونوري / سلوك التعذيب، فإنما بينّوا عطفا أقل و منطقاً أوفر من السيد تيتجان، حيث لم يفتّشوا عن تصالح مستحيل بين خدمة الجزائر الفرنسية وبين الديمقراطية. فالخيار هنا ليس خياراً أدبياً فقط بل هو خيار سياسي أيضاً ، فهو خيار بين الحرب والسلم، بين الديكتاتورية و الديمقراطية، ولن يفيد أبداً نكران أن المجموعة الوطنية ممزقة بشكل قطعي منذ 13 ماي ، فامتحان القوة لا يمكن تجنبه، رغم أن هناك الكثير ممن لا يريد قبوله، و لا يستطيعون التعود عليه. فلقد رأينا خلال هذه المحاكمة ذاتها، وفي بداياتها، إلى أي درجة كان الحضور الفعّال للجزائريين يصدم البعض ، حيث كان يقال لنا : إنّهم بتدخّلاتهم الكثيرة، إنما يخاطرون بإضعاف اليسار. لقد تمّت محاولا ت إدخال التفرقة حتى وسط المتهمين وصفوف المحامين، بيد أن هذه المحاولة قد باء ت بالفشل لأنها لاتتطابق مع الواقع.

في هذه الحرب حيث " نحن جوهرياً على خطأ " ، كما كان يقول /جورج أرنو/، فإن الوقوف إلى جانب العدالة إنما يعني مساندة جبهة التحرير الوطني، و كيف لنا ألاّ نختار هذا الوقوف؟، فجورج أرنو الذي شجب المعاملة المسلّطة على جميلة بوحيرد، يعلم أن شجبه هذا الذي عمّم فيلم (جميلة تلك الجزائرية) شعبيّته ، إنما حرّك جماهير أفريقيا و آسيا ضد حرب يخوضها الجيش الفرنسي بهكذا وسائل. إنّ مثل هذه الصراحة تسمّى شجاعة سياسية، ومابين إدانة التعذيب وإعلان حق

العصيان يكون الطريق مستقيماً ، كما أن " تيتجان " و" ماسو " هما وحدهما منطقيان، حيث يعبّران بصراحة تامة عن موقفهما . هذا الموقف ، هو ماكان اليسار ـ قبل ثلاث سنوات ـ يدينه كاستفزاز أو كخيانة، أما اليوم ، فقد حطّم المتهمون بشروحاتهم جدار الصمت و الإستياء من حولهم ، و لم يعودوا معزولـين، فـ(121) مثقفاً ـ و اليوم (253)ـ يعلنون احترامهم و يبرّرون سلوك الفرنسيين الذين يعتقدون أنه من واجبهم مساعدة وحماية الجزائريين المضطهدين باسم الشعب الفرنسي.

و بمقدار نداء الـ (121) مثقّفا فإن نداء (36) ساعي بريد لمركز الفرز في شارع شارون المؤيّد لسلوكهم، إنّما يحمل التشجيع أيضاً ، هكذا عرف كل من / فيرا هيرولد / و/ جاكلين كاريه /، المثقفة و العاملة، أنهما ليستا وحيدتين من الآن فصاعداً.

إن الأمر لا يتعلق بإعجاب المحمكة. فالمتهمون "مذنبون" يعرفون أنهم سينالون سقف الأحكام . لقد فعلوا كل شيء لذلك أمام قضاة ليسوا سوى بشر. كما لا يتعلق الأمر في نظرهم بدعوة اليسار بكامله إلى التخلي عن كل الأشكال الشرعية و إلى الإلتحاق بشبكات (الدعم) ، إن هذا يفترض أن المسألة وجدت حلّها . مايراد فقط أن يتمّ تفهّم أفضل لنشاط (شبكة الدعم)، و أن يتمّ تقبّل التضامن بين اليسار و بين جبهة التحرير الوطني كفعل سياسي . هذا التضامن الذي يسمّيه الإتهام بكل مزاجية (تواطؤ) بينما يطالب به المتهمون كتحالف، أي كتضامن فعّال ومعترف به .

هكذا يعطون لإجتماعهم في "صندوق المتهمين" معناه الحقيقي، و يصبح هذا الاجتماع ـ بعامل صدفة المراقبات البوليسية ـ رمز اللقاء بين الشبيبة الفرنسية والشبيبة الجزائرية ، بعد ست سنوات من الفصل كما أن حرب البيانات أثناء الجلسة، وغضب الجنرالات و جديد المراسيم الحكومية، كل هذا يدلّل جيدا على أن معنى هذه المحاكمة لا يخفى على أحد في دوائر السلطة ، وعلى الأخص في الجامعات والمعامل، و هو مايوفّر للمتهمين تفاؤلهم ، فهم يعلمون أنهم موضع حكم أكيد، لكنهم يدركون بالمقابل أنهم الحجرة التي ستسبّب الإنهيار "لجبل الثلج".

الفهرس

الطبع: المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار - وحدة رويبة
الجزائر 2007

أصوات مناهضة للاستدمار

«وإذا كانت الكلمات من فم جاك فرجيس تضرب بتلك الشدة التي تربك بوصلة الفضاة الأكثر ضراسو، وتتوصل إلى هز مشاعر الشخصيات السياسية البعيدة عن التعاطف المجامل، كما هو حال الجنرال ديغول، وتنجح خاصة في تطيّير جدار صمت وسائل الإعلام، فليس هذا بداية، بسبب كون جاك فرجيس خبيرا في أصول المحاكم، أو لأنه يشترك بنفس القناعات المعادية للإستدمار مع الشعب الجزائري وجبهة التحرير الوطني. فلقد فعله كثيرون أيضا بفعاليَّة وحميّة... بل لأن مهنة المحاماة وولع النضال عند جاك فرجيس يرتعان في روح شاعرية تغذيهما وتتجاوزهما.»

مختار من التوطئة



N° ISBN : 978-9974-21-322-3
N° Dépôt légal : 695-2007